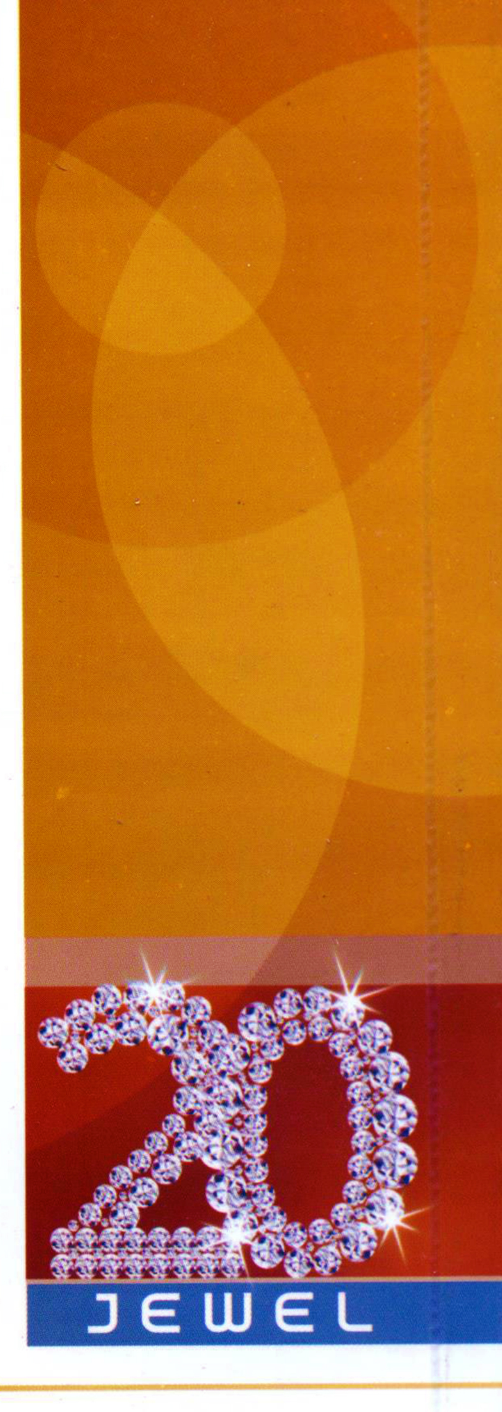
إعداد

أ.د. عادل بن علي الشدي

الأمين العام للهيئة العالمية للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته
والمشرف على كرسي المهندس عبد المحسن الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة - جامعة الملك سعود



٢٠ جوهرة من أخلاق الرسول ﷺ



التواضع . الشجاعة والقوة . الزهد . الحياء . السكينة والوقار . الثقة بالله تعالى . التفاؤل . حسن العشرة الزوجية . التوازن والاعتدال . حسن الخلق . الرحمة . الرفق . الصدق . الأمانة . الصبر . العفو . الكرم والجود . العدل . الوفاء . الحلم

كرسي المهندس عبدالمحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
بجامعة الملك سعود



Chair Of Engr.
Abdoulmohsen M.aldrees
For The Prophet Its & Mohammad`s Seerh
Contemporary Studies - King Saud University

٢٠ جوهرة من أخلاق الرسول ﷺ

إعداد

أ.د. عادل بن علي الشدي

الأمين العام للهيئة العالمية للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته
والمشرف على كرسي المهندس عبد المحسن الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة - جامعة الملك سعود

Engineer Abdulmohsen bin Mohammed
Aldrees Chair for the Biography of the
Prophet and its Contemporary Studies
King Saud University



كرسي المهندس عبد المحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
جامعة الملك سعود

 مدار الوطن للنشر ، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشدي، عادل علي

٢٠ جوهرة من أخلاق الرسول ﷺ/ عادل علي الشدي ـ الرياض، ١٤٣٥هـ

... ص ؛ ... سم

ردمك: ٣ ـ ٩ ـ ٩٠٥٩٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ - السيرة النبوية ٢ - الأخلاق الإسلامية ٣- الشمائل المحمدية أ - العنوان

ديوي ٢٣٩.٦ ١٤٣٥/٨٤٨٣

رقم الإيداع : ١٤٣٥/٨٤٨٣
ردمك : ٣-٩-٩٠٥٩٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ/٢٠١٤م



كرسي المهندس عبدالمحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
جامعة الملك سعود

Engineer Abdulmohsen bin Mohammed
Aldrees Chair for the Biography of the
Prophet and its Contemporary Studies
King Saud University

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل نبيه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين وسراجًا ينير طريق السالكين، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد بن عبد الله الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، أرحم الخلق بالخلق، وأعلم الخلق بالحق القائل: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، والقائل: «**إنما أنا رحمة مهداة**»(٢) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، **وبعد:**

فمن المعلوم أن الله تعالى قد أرشدنا إلى التأسي بنبينا الكريم ﷺ والاقتداء به في أقواله وأفعاله وأحواله فقال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولا ريب أن هذا التأسي يقتضي النظر في سيرته العطرة وهديه المبارك وتعامله الشريف ﷺ مع الخلق أجمعين وهو ما يؤدي بالضرورة إلى معرفة أخلاقه ﷺ التي أكرمه الله تعالى بها واختار سبحانه أن يمتدحه بها دون سائر ما منّ به عليه من صفات كريمة فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١) وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

ومن رحمة الله بخلقه أن يسّر سبل التعرف إلى سيرته ﷺ وأخلاقه وأحواله، وسخر لذلك صحابته الكرام ولاسيما الذين منَّ الله عليهم بزيادة القرب منه ﷺ، وملازمته أكثر أوقاته كأمهات المؤمنين، والخلفاء الأربعة الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، إلا أن الملاحظ عزوف كثير من الناس عن تعلم سيرة رسول الله ﷺ وزهدهم في تلمس مواطن القدوة من شخصيته ﷺ مع شدّة حاجتهم، وحاجة من يربونهم من الأبناء والبنات والطلاب والطالبات إلى التخلق بأخلاقه والتأسي بأحواله والاقتداء بسيرته عليه الصلاة والسلام.

وأصبح حال هؤلاء قريب من قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

ومن هنا فقد عزمت على اختيار جملة مباركة من أبرز أخلاق الرسول ﷺ وجمع ما تيسر من نصوص السيرة النبوية المثبتة لها ذلك أن جواهر الأخلاق النبوية ودرر السيرة العطرة قريبة المأخذ، سهلة المنال، ميسرة السبيل، والأجيال في أمسّ الحاجة إلى القدوة الصالحة والخلق القويم الذي تزكو به النفوس ويصلح به العمل.

وبعد طول نظر في الأخلاق النبوية المباركة اخترت عشرين خلقًا نبويًّا كريمًا لتكون مادة هذا الكتاب وموضوعه؛ **وقد حرصت فيه على أمور ثلاثة:**

الأول: التركيز والتيسير مع العناية بوضوح العبارة وسهولة الجملة ليستفيد منه أكبر عدد من الناس، ويزول منه ما يشتكي منه البعض من صعوبة الفهم، وعدم الوضوح في المقاصد وطول المؤلفات في السيرة النبوية.

الثاني: العناية بالنصوص الواردة في السيرة النبوية العطرة وإثباتها في مواضعها المناسبة وإبرازها والاهتمام بها فهي المقصود الأول في الكتاب وهذا يقتضي التقليل قدر الإمكان في الشرح والبيان والتعليل الشخصي للمؤلف.. وهو ما سيلاحظه القارئ الكريم في هذا الكتاب لقناعتي بأن إشراقات السيرة النبوية العطرة بألفاظها التي وردت بها في مصادرها الأصلية أولى بالعناية والاهتمام من عبارات المؤلفين المعاصرين التي ربما أشغلت القارئ عن النص الأصلي.

الثالث: الاهتمام بالتوثيق عزوًا وتخريجًا وإحالة إذ على الرغم من كثرة النصوص التي زادت في هذا الكتاب عن ٤٩٠ نصًّا، وحرصي على عدم إثقال حواشي الكتاب إلا أن التوثيق العلمي في حدِّه الضروري بقي مقدمًا ولاسيما مع علمي بأن هذا الكتاب وأمثاله يصلح أن يكون مرجعًا علميًّا، ومادة مناسبة في الدروس العلمية والدورات التأهيلية التي تقام في المدارس والجامعات والمحاضن التربوية بل وحتى في المساجد حيث الحاجة قائمة لتقديم مادة علمية ميسرة ومناسبة وموثقة في السيرة النبوية العطرة وخصوصًا في جانب أخلاق الرسول ﷺ وسبل تحقيق الأسوة به عليه الصلاة والسلام في واقع الناس ومعاشهم.

وختامًا: فإني أتوجه بخالص الشكر والتقدير بعد شكر الله العلي القدير لكل من بذل جهدًا أو أعان برأي أو فكرة ليخرج الكتاب بهذه الحلة القشيبة وأخص منهم سعادة الأخ المهندس عبد المحسن الدريس الذي تبنى إنشاء كرسي علمي للسيرة النبوية العطرة ودراساتها المعاصرة في جامعة

الملك سعود منذ أن كان فكرة في الذهن وحتى استوى على سوقه، وأصبحت له جهود معتبرة في خدمة السيرة النبوية العطرة ولاسيما من خلال البحوث والدراسات العلمية التي تصدر عنه تباعًا، كما أشكر معالي الأخ الدكتور/ بدران بن عبد الرحمن العمر مدير جامعة الملك سعود على ما يحظى به كرسي المهندس عبد المحسن الدريس من عنايته واهتمامه ودعمه وتشجيعه، والشكر موصول للزملاء الأعزاء والباحثين الكرام الذين يعملون بجد ونشاط في هذا الكرسي خدمة للسيرة النبوية وأخص منهم الأخ الدكتور/ تيسير بن سعد أبو حيمد، والأخ الأستاذ/ خالد أبو صالح.

سائلًا الله تبارك وتعالى أن يوفق الجميع إلى ما يحبه ويرضاه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د. عادل بن علي الشدِّي

المشرف على كرسي المهندس عبد المحسن الدريس للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة في جامعة الملك سعود

الجوهرة الأولى:

حسن الخلق

أخبر الله تبارك وتعالى عن حسن خلقِ نبيِّه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [ن: ٤].

قال العوفي عن ابن عباس: أي وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام.

وقال عطية العوفي: لعلى أدب عظيم[١].

وعن سعد بن هشام بن عامر أنه سأل أمَّ المؤمنين عائشة ﵂ عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق نبيّ الله ﷺ كان القرآن. قال: فهمَمْت أن أقومَ ولا أسأل أحدًا عن شيء[٢].

قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه ﵇ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له، وخلقًا تطبعه، وترك طبعه الجبليّ، فمهما أمره القرآنُ فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحِلْم وكل خُلُقٍ جميل. كما ثبت في الصحيحين[٣] عن أنسٍ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنينَ فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشي فعلته: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعلْه: ألا فعلتَه؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

وكان ﷺ **أحسن الناس خُلقًا**، ولا مَسَسْت خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ»(١).

وأخبر ﷺ عن مقصدِ دعوته فقال: «**إنما بعثت لأتمّمَ صالحَ الأخلاق**»(٢)، وفي لفظ: «**لأتمم مكارمَ الأخلاقِ**»(٣).

فإذا كان النبي ﷺ إنما بعث لإتمام مكارم الأخلاق، فكيف لا يتحلى هو بتلك المكارم التي بعث لإتمامها، بل كيف لا يكون على غاية الكمال في هذه الأخلاق التي يدعو إليها.

وكان ﷺ **موصوفًا بمكارم الأخلاق** في الكتب المتقدّمة كالتوراة والإنجيل، يدلُّ على ذلك ما جاء عن عطاء بن يسارٍ قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة!؛ ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به الملةَ العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتحَ بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلْفًا(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٨١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

وعن أنس بن مالك ؓ قال: لم يكن النبيُّ ﷺ سبابًا ولا فحَّاشًا، ولا لعَّانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «**ما له تَرِب جبينُه**»(١)، قيل: أراد به الدعاء له بكثرة السجود(٢).

ومن حُسن خلقِ النبي ﷺ: كمال التعامل مع الخلق، وحسن الاستماع إليهم، وقضاء حوائجهم، فعن أنسٍ ؓ قال: ما رأيت رجلًا التقم أذن رسول الله ﷺ، فيُنَحِّي رأسَه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحِّي رأسَه، وما رأيت رجلًا أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجلُ هو الذي يدعُ يده(٣).

كان هذا خلقه ﷺ مع جميع الناس على كثرتهم، وكثرة حاجاتهم وشكاواهم وأسئلتهم، فهذا يستفتيه، وهذا يسأله مالًا، وهذا يسأله ضياعًا، وهذا يشتكي جاره، وهذا يشتكي تقصيره في طاعة الله، وهذا يسأله عن أحب الأعمال إلى الله، وهذا يقصُّ عليه رؤياه، وهذا يطلب منه الدعاء، وهذا يطلب منه مرافقته في الجنة، وهذا يجادله وهذا يحاوره وهذا يناقشه، وهو صلى الله عليه وسلم يقابل كلَّ هؤلاء بالبشر والرحب وسعة الصدر، لم يؤيّس منه راجيًا، ولم يُقَنّط منه أحدًا، بل وسع الجميعَ فضلُه وإحسانُه وجودُه وعطاياه ﷺ.

ومن حسن خلقه ﷺ: رفقُه في تعليم الناس، بلا شدة ولا تعنيف ولا تقريع، يدلّ على ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السلمي ؓ قال: بينا أنا أصلي

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣١).

(٢) ذكره البدر العيني في شرح سنن أبي داود (١/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه أبوداود (٤٧٩٦) وحسنه الألباني.

مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثُكْلَ أُمِّيَاه ما شأنكم تنظرون إليَّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتونني لكني سكت، فلما صلَّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[١] ولا ضربني ولا شتمني قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[٢].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكتُ يا رسول الله! قال: «**وما أهلكك؟**» قال: وقعت على امرأتي في رمضان.

قال: «**هل تجد ما تعتقُ رقبة؟**» قال: لا.

قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**». قال: لا.

قال: «**فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا؟**» قال: لا.

ثم جلس، فأُتي النبيُّ ﷺ بعَرَقٍ[٣] فيه تمر. فقال: «**تصدق بهذا**» قال: أفقر منا؟ فما بين لابتيها[٤] أهلُ بيت أحوجُ إليه منا. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه؛ ثم قال: «**اذهب فأطعمه أهلك**»[٥].

---

(١) **كهرني**: نهرني ووبخني.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٣) **العرق**: مكتل يسع ثلاثين صاعًا.

(٤) **لابتيها**: الحرتان الشرقية والغربية والمراد: ما بين طرفيها.

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٠٠)، ومسلم (١١١١).

فانظر إلى هذا الرجل المخطئ الذي أتى رسولَ الله ﷺ نادمًا خائفًا وجلًا منتظرًا للعقوبة، فما زال به النبي ﷺ يعرض عليه الحلَّ تلو الآخر حسبَ استطاعته فلما لم يكن مستطيعًا لشيء من تلك الكفارات المنصوص عليها، أعطاه النبي ﷺ الكفارة من عنده، وأمره أن يتصدق بها، فذكر الرجل أنه لا يعلم من هم أفقر منه، فضحك النبي ﷺ إيناسًا له، وأمره أن يأخذ الطعام لأهله، فعاد الرجل بعد أن كان يقول: هلكت يا رسول الله، عاد فرحًا مسرورًا يحمل بين يديه قوت عياله.

ومن ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُزْرموه**[1]**، دعوه**» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن**» قال: ثم أمر رجلًا من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فشنَّه عليه[2].

وفي رواية: فثار الناس إليه ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين**»[3].

وكان من حسن خلقه ﷺ؛ التبسم في وجوه أصحابه والدعاء لهم والإذن لهم في الدخول عليه، حيث لم يكن على بابه حَجَبة ولا بوابين

(١) **لا تزرموه**: لا تقطعوا بوله.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٨).

صلوات الله وسلامه عليه، بل كان مكشوفًا للناس ظاهرًا لهم، متى أرادوا أن يقابلوه قابلوه دون عناء.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري فقال: «**اللهم ثبته واجعَلْه هاديًا مهديًّا**»[١].

ومن حسن خلقه ﷺ، ما كان عليه من لطف ورقةٍ مع الخادم، حتى لو قَصَّر الخادم في ما كلّف به، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيُّ الله ﷺ، فخرجت حتى أمرَّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي. قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال: «**يا أنيس أذهبتَ حيث أمرتك؟**» قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله[٢].

فانظر كيف داعبه النبي ﷺ فقبض بقفاه من ورائه، ولئلا يظن أنس أنه غاضب كان ﷺ يضحك حتى يستأنس الغلام ولا يخاف.

وانظر كيف ناداه بالتصغير: «**يا أنيس**» ليشعره بالطمأنينة وعدم الخوف، لأنه ﷺ كان يحنو على الأطفال ويرحمهم، وكان يعلم أن الطفل في هذه السن يميل إلى اللعب والمرح، ولذلك ذهب أنس رضي الله عنه إلى حيث يلعب الصبيان ويمرحون، ولم يعاقبه النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٠).

وعلى الرغم من هذا الخلق العظيم الذي كان يتمتع به رسول الله ﷺ إلا أنه كان يسأل الله تعالى كمال حسن الخلق، فكان يقول في استفتاحه لصلاة الليل: «**واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئَها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[1].

وكان ﷺ يقول: «**اللهم كما حسَّنت خَلْقي، فحسِّن خُلُقي**»[2] وهذا يدل على أهمية حسن الخلق في الدعوة إلى الله تعالى؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهميته كذلك في قيادة الناس والتأثير عليهم إلى درجة أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ في كتابه الكريم أن الناس سيتفرقون عنه لو لم يكن حَسَنَ الخلق في تعامله معهم، هذا وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فكيف بمن هم دونه مكانة ومنزلة وقدرًا من العلماء والوجهاء والدعاة وطلبة العلم الذين يحتاجون إلى حسن الخلق ولين التعامل مع الناس، ليقبل الناس منهم نصحهم وتوجيههم قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) أخرجه ابن حبان، وأبو يعلى في مسنده (٥٠٧٥).

الجوهرة الثانية:

الرحمة

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الرحمة البشرية عرفها أبو البقاء بأنها: «حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقةُ القلب، وتكون مبدأً للانعطافِ النفساني الذي هو مبدأُ الإحسان»[(١)].

وقال الجرجاني: «الرحمة هي إرادةُ إيصالِ الخير»[(٢)].

وبين الله تعالى أن إرسالَ نبينا محمدٍ ﷺ كان بهدف رحمة البشرية فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبين تعالى رحمة نبيّه للخلقِ ﷺ فقال: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمةٌ مهداة**»[(٣)].

---

(١) الكليات، ص(٧٤٢).

(٢) التعريف، ص(١٤٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١) وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: «**إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة**»[1].

وقد يقول قائل: كيف يكون النبي محمد ﷺ رحمة للعالمين وقد قاتل أناسًا وماتوا على الكفر به، فاستحقوا دخول النار بسببه، فكيف يكون النبيُّ ﷺ رحمة لهؤلاء؟

وقد أجاب عن ذلك ابن القيم فقال: «وأصحُّ القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته:

أما أتباعُه: فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه: فالمحاربون له عُجِّل قتلُهم؛ وموتُهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتَهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كُتب عليهم الشقاء، فتعجيلُ موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له، فعاشوا في الدنيا تحت ظلِّه وعهده وذمته، وهم أقلُّ شرًّا بذلك العهدِ من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصَلَ لهم بإظهار الإيمان به حقنُ دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامُها، وجريانُ أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره.

---

(١) أخرجه مسلم، رقم(٢٥٩٩).

وأما الأممُ النائيةُ عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذابَ العامَّ عن أهل الأرض، فأصاب كلَّ العالمين النفعُ برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكلِّ أحد، لكنْ المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردُّوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض، لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض»[١].

ومما يدلُّ على رحمته ﷺ بالكفار ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد قال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، لم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت بهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم علي ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبقَ عليهم الأخشبين**»[٢].

---

(١) جلاء الأفهام، ص(١٨١).

(٢) **الأخشبان**: جبلان بمكة.

فقال رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا**»[(١)].

لم يرض النبي ﷺ بهذا الحل السريع، وهو القضاء على المشركين واستئصالهم، لأن قلبه الرحيم يطمع في هدايتهم، أو هداية من يخرج من أصلابهم. فهو لم يبعث لإهلاك الناس وقتلهم، إنما بعث لهدايتهم ونجاتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

جاء الطفيل بن عمرٍو الدوسي إلى النبي ﷺ بعد ما يئس من هداية قومه، فقال: يا رسول الله! إن دوسًا عصت وأبت، فادع الله عليها!!

فظن الناس أنه سوف يدعو عليهم فقالوا: هلكت دوس. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اهْدِ دوسًا وائتِ بهم**»[(٢)].

لم يقل النبي ﷺ: إن الرجل أعلم بقومه، وقد آيس من هدايتهم، وإنما دعا لهم ﷺ بالهداية، لأنه نبيُّ الرحمة الذي يريد للناس الهداية والرشاد والنجاة يوم القيامة.

ويتكرر هذا الموقف مرارًا، حتى يأتي دور أبي هريرة رضي الله عنه فيقول: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت: يا رسول الله إني كنت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٧، ٦٣٩٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها إلى الإسلام فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اهدِ أمَّ أبي هريرة**» هكذا! ولم يلتفت ﷺ إلى سبِّها إياه، فهو ﷺ ما كان ينتقم لنفسه قط.

قال أبو هريرة: فخرجت مستبشرًا بدعوة نبيِّ الله ﷺ فلما جئت فصرتُ إلى الباب، فإذا هو مُجَافٍ[1]، فسمعت أمي خشفَ قدمي[2] فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضةَ الماء[3]، قال: فاغتسلت ولبست دِرْعَها، وعَجِلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيتُه وأنا أبكي من الفرح. قال: قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة. فحمد الله، وأثنى عليه، وقال خيرًا. قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبِّب عُبَيْدك هذا** – يعني أبا هريرة – **إلى عبادك المؤمنين**» فما خُلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[4].

وللمرأة المشركة نصيب من الرحمة النبوية، فهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تقول: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، فاستفتيتُ

---

(١) **مجاف**: أي مغلق.

(٢) **خشف قدميّ**: أي صوتها في الأرض.

(٣) **خضخضة الماء**: صوت تحريكه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩١).

رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! قدمت عليَّ أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: «**نعم صِلي أمكِ**»(١).

ومن رحمة النبي ﷺ **بأطفال أهل الكتاب** ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدمُ النبيَّ ﷺ، فمرض فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده، فقعد عنه رأسه فقال له: «**أسلم**»، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطِعْ أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(٢).

وأما رحمته ﷺ **بأمته** فذلك أمرٌ يطول ذكره ولكن نكتفي من ذلك بإشارات، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقول الله عز وجل في عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**» وبكى ﷺ، فقال الله عز وجل: «**يا جبريل! اذهب إلى محمدٍ، وربُّك أعلم، فسله ما يبكيك**». فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: «**يا جبريل! اذهب إلى محمدٍ فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤوك**»(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢).

فنبينا ﷺ يبكي ويقول: «**اللهم أمتي أمتي**» من أجل أن يرحم الله هذه الأمة، ويعفو عنها، ويخفف عنها التكاليف الشرعية.

قال القرطبي في المفهم: «ومعنى هاتين الآيتين أن كلَّ واحدٍ من إبراهيم وعيسى لم يجزما في الدعاءِ لعصاة أممها، ولم يجهدا أنفسهما في ذلك،.. ولـمَّا فهم نبينا ﷺ ذلك انبعث بحكم ما يجده من شدة شفقته ورأفته وكثرة حرصه على نجاة أمته، وبحكم ما وهبه الله تعالى من رفعةِ مقامه على غيره، جازمًا في الدعاء مجتهدًا لهم، متضرعًا باكيًا ملحًّا يقول: «أمتي أمتي» فعل المحبّ لمحبوبه، الحريص على ما يرضيه، الشفيق عليه، اللطيف به، ثم لم يزل كذلك حتى أجابه الله فيهم وبشره بما يسرّه من مآل حالهم، حيث قال له تعالى: «**إنا سنرضيك في أمتك**» وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وقد قال بعض العلماء: والله ما يرضى محمد ﷺ وأحدٌ من أمته في النار!

وهذا كلّه يدلُّ على أن الله تعالى خصَّ نبينا ﷺ من كريم الخلق، ومن طيب النفس، ومن مقام الفتوة بما لم يختص به أحد غيره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤][(١)].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكلّ نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبيٍّ دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»[(٢)].

---

(١) المفهم (٣/ ٨١، ٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٩) واللفظ له.

ومن رحمته ﷺ **بأمته** أنه نهى عن سؤال ما سكت عنه حتى لئلا يفرض على الأمة فتتركه فتهلك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجّوا**»، فقال رجلٌ: أكلَّ عام يا رسول الله؟! فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولَـمَا استطعت**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»(١).

وأما رحمته ﷺ **بالمرأة** فتتجلى في وصاته بها حيث قال: «**فاستوصوا بالنساء خيرًا**»(٢).

وكان ﷺ يتحمل من النساء ما لا يتحمل من غيرهن من رفع الصوت بحضرته واستكثار الكلام معه، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يدخل على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلّمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فما دخل عمر قُمْنَ فبادرن الحجاب(٣)، فضحك رسول الله ﷺ. فقال عمر: أضحك الله سِنَّك يا رسول الله؟ فقال: «**عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب!**».

فقال عمر: أنت أحقُّ أن يهبن يا رسول الله.

ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن! أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أي سارعن بالاختباء والاستتار من عمر.

فقلن: نعم أنت أفظُّ وأغلظُ من رسول الله ﷺ[١].

وسئلت عائشة ﵂: ما كان النبيُّ ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة[٢].

ومعنى ذلك أنه ﷺ كان يساعد أهله في أعمالهن وهذا من تواضعه ﷺ ورحمته بهن، وقد فصلت ذلك فقالت: كان ﷺ بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[٣].

وأما رحمته ﷺ بالأطفال، فقد كان أرحم الناس بهم، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يرحم لا يُرحم**»[٤].

ففي هذا الحديث بيان عظيم شفقة النبيّ ﷺ بالأطفال؛ وأن تقبيل الصبي من مظاهر الرحمة والشفقة، لأن ذلك مما يدخل على قلبه السرور ويُشعره بالأمان وراحة النفس.

ومن صور رحمة النبي ﷺ بالأطفال أنه دخل على ابنه إبراهيم ﵇ وهو يجود بنفسه- أي في سياق الموت – فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرف،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٥٦)، والبخاري في الأدب المفرد، رقم(٥٤١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم رقم (٢٣١٨).

وقال: «**إن العين تدمع، وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(١)].

فأعطى النبيُّ ﷺ ربَّه تعالى حقَّ العبودية في الصبر والرضا، والتسليم لأمر الله تعالى، وأعطى ابنه حقَّه في الرحمة والشفقة وذرف الدمع والحزن على فراقه وهذا من أكمل صور العبودية.

ولـمَّا مات ابنُ ابنته فاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «**إنها رحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(٢)].

وكان ﷺ يلاطف الأطفال ويتحبب إليهم ويخالطهم، فعن أنسٍ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان إذا جاء قال: «**يا أبا عمير! ما فعل النغير**» نغرٌ كان يلعب به. فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا[(٣)].

وعن سهل بن سعدٍ قال: أُتي بالمنذر بن أبي أسيد إلى رسول الله ﷺ حين ولد، فوضعه النبي ﷺ على فخذه وأبو أسيد جالس، فلهى النبي ﷺ بشيءٍ بين يديه، فأمر أبو أسيد بابنه فاحتُمل من على فخذ رسول الله ﷺ فأقلبوه، فاستفاق رسولُ الله ﷺ فقال: «**أين الصبي؟**» فقال أبو أسيد:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم، رقم ٢١٥٠).

أقلبناه يا رسول الله فقال: «**ما اسمه**» قال: فلان يا رسول الله. قال: «**لا، ولكن اسمه المنذر**» فسماه يومئذٍ المنذر[١].

ومن رحمة النبي ﷺ بالأطفال أنه كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح برؤوسهم، ويدعو لهم[٢].

ومن رحمته ﷺ بالصغار أنه كان يؤتى بالصبيان فيبرِّك عليهم ويُحنِّكهم[٣].

ومعنى: يبرك عليهم: يمسحهم بيده الشريفة ويدعو لهم، ويحنكهم بالتمر، وذلك بأن يجعل في فمه الشريف تمرة فيمضغها ثم يجعلها في فم الصبي فيدلك بها حنكه.

وكان ﷺ يصلي وهو حامل أمامةَ بنتَ ابنته زينب، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[٤].

وأما رحمته ﷺ بالخدم والعبيد والضعفاء فشيء لم تعرف البشرية مثله، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفٍّ قطّ، ولا قال لشيءٍ فعلتُه لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا»[٥].

(١) أخرجه البخاري (٦١٩١)، ومسلم (٢١٤٩).
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠١٦١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).
(٥) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما تنزعُ يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها(١).

ومن رحمة النبي ﷺ بالعبيد أنه رفع عنهم الظلم والقهر وحذر من الإسراف في عقوبتهم، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط فسمعت من خلفي صوتًا: «**اعلم أبا مسعود**» فلم أفهم الصوت من الغضب. قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود!**» قال: فألقيت السوط من يدي. قال: «**اعلم أبا مسعود أن الله تبارك وتعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام**» قلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

وفي رواية: قلت: يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله. فقال رسول الله ﷺ: «**أما لو لم تفعل لَلَفَحَتْك النار أو لـمسَّتك النار**»(٢).

وكان ﷺ يرحم الضعفاء الذين لا أهل لهم ولا عشيرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أسودَ – رجلًا أو امرأة – كان يكون في المسجد يقمُّ(٣) المسجد، فمات ولم يعلم النبيُّ ﷺ بموته، فذكره ذات يومٍ فقال: «**ما فعل ذلك**

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٤)، وابن ماجه (٤١٧٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

(٣) **يقم**: يكنس وينظف.

الإنسان؟» قالوا: مات يا رسول الله. قال: «**أفلا آذنتموني؟**» فقالوا: إنه كان كذا وكذا قصته، فَحَقَروا شأنه، قال: «**فدُلوني على قبره**» فأتى قبره فصلَّى عليه[1].

فهذا الرجل أو تلك المرأة من ضعفاء المسلمين الذين لا أهل لهم ولا مال ولا عشيرة، حتى أن اسمه غير معروف، ومع ذلك يهتم رسول الله ﷺ لشأنه هذا الاهتمام فيسأل عنه، ويعاتب الصحابة على عدم إعلامه بوفاته، ثم يطلب منهم أن يدلوه على قبره فيصلي عليه رجاء أن تصيبه الرحمة ميتًا بدعاء النبي ﷺ واستغفاره له.

وتتعدى رحمة النبي ﷺ عالم البشر لتصل إلى عالم الحيوان، فيقرر النبي ﷺ أن للحيوان حقوقًا قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وقبل أن يتكلم الغرب في ذلك بقرون طويلة، فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فدخل حائطًا لرجلٍ من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه[2]، فسكن فقال ﷺ: «**من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله. فقال: «**أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها، فإنه شكى إليَّ أنك تجيعُه وتُدئبُه**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧)، ومسلم (٩٥٦).

(٢) **ذفراه**: موضع خلف أذن البعير.

(٣) **تدئبه**: تتعبه. والحديث أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٤، ٢٠٥) وصححه الألباني.

ومرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمةِ**[١]**، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»[٢].

وحذَّر ﷺ من إيذاء الحيوان فقال: «**دخلت امرأة النار في هرةٍ ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاشَ الأرض حتى ماتت هزلًا**»[٣].

بل إن رحمته ﷺ تعدت الحيوان لتصل إلى الجماد. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله! ألا نجعل لك منبرًا. قال: «**إن شئتم**» فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمَّه إليه، تئن أنينَ الصبيِّ الذي يُسَكَّن. قال: «**تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها!**»[٤].

كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله! الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه، لمكانه من الله عز وجل، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه[٥].

---

(١) **المعجمة**: يقال للبهائم عجم لأنها لا تتكلم.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٩٥).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/ ٩٧).

الجوهرة الثالثة:

الرفق

الرفقُ هو اليسر في الأمور والسهولةُ في التوصل إليها، وخلافُه العنف وهو التشديد في التوصل إلى المطلوب[١].

ولقد كان نبينا محمد ﷺ رفيقًا يحبُّ الرفق ويأمر به ويكره العنف والتشدد وينهى عنه.

ومن رفقه ﷺ بأمته أنه «ما خُيّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه»[٢].

وحث ﷺ ولاةَ الأمور على الرفق بالرعية كما في حديث عائشة أنه ﷺ قالت: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشْقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»[٣].

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»[٤].

---

(١) الفروق لأبي هلال، ص(٢٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧) واللفظ له.
(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٨).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»(١).

وأما رفقه ﷺ بأمته، فالأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ولكن ندلل على ذلك ببعض الأمثلة التي هي كقطرة في بحر رفقه ﷺ بأمته.

فعن أبي قتادة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إني لأقوم في الصلاة أريدُ أن أطوِّلَ فيها، فأسمع بكاء الصبيّ، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشقَّ على أمّه**»(٢).

فالنبيُّ ﷺ يترك ما يحبُّ وما يحبُّه المسلمون من الإطالة في الصلاة واستمتاعهم بقراءته ﷺ لأجل امرأةٍ واحدة، تسمع بكاء صغيرها، ولا تجدُ حيلةً في إسكاته، فيتشتت فكرها ويشق ذلك عليها، فيتجوز النبيُّ ﷺ في الصلاة رفقًا بها وبصغيرها.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال: أقبل رجلٌ بناضحين(٣) وقد جنح الليل، فوافق معاذًا يصلي، فترك ناضِحَه، وأقبل إلى معاذٍ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذًا نال منه، فأتى النبيَّ ﷺ، فشكى إليه معاذًا، فقال النبيُّ ﷺ: «**يا معاذُ! أفتأنٌ أنت؟ ثلاث مرارٍ، فلولا صليت بسبح اسم ربك، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧).

(٣) **الناضح**: البعير الذي يستعمل في نقل الماء.

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٥).

وعن أبي مسعودٍ قال: قال رجل: يا رسول الله**!** إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلانٌ فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موضعٍ كان أشدَّ غضبًا منه يومئذٍ ثم قال: «**يا أيها الناس! إن منكم منفّرين، فمن أمَّ الناس فليتجوَّز، فإن خلفَه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة**»(١).

وكان من رفق النبيِّ ﷺ بأمته أنه كان يترك الشيء من الطاعة مخافة أن يفرض على الأمة، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل، فصلَّى في المسجد، فصلى رجالٌ بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد في الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ، فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم تشهد فقال: «**أما بعد فإنه لم يَخْفَ عليَّ شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها**»(٢).

ومن رفقه ﷺ بأمته أنه كان ينهى عن التشدد في الدين والغلو فيه ويبين عواقب ذلك، فعن سهل بن أبي أمامة أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك رضي الله عنه بالمدينة في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، فإذا هو يصلي صلاة خفيفةً دقيقةً كأنها صلاة مسافر أو قريبًا منها، فلما سلَّم قال أبي: يرحمك الله أرأيت هذه الصلاةَ المكتوبة أو شيءٌ تنفَّلتَه؟ قال: إنها المكتوبة،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤)، ومسلم (٤٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

وإنها لصلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئًا سهوتُ عنه. فقال: إن رسولَ الله ﷺ كان يقول: «**لا تشددوا على أنفسكم فيَشَدَّد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]»[١].

وكان النبيﷺ ينهى أصحابه عن مشاركته فيما اختصَّ به من العبادات رفقًا بهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «**لا تواصلوا**». قالوا: إنك تواصل. قال: «**إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»، فلم ينتهوا عن الوصال. قال: فواصل بهم النبيُّ ﷺ يومين أو ليلتين، ثم رأوا الهلالَ، فقال النبي ﷺ: «**لو تأخر الهلال لزدتكم**» كالمنكِّل لهم[٢].

وكان ﷺ يأمر من بدر منه تشدُّدٌ في العبادة بالاقتصاد واتباع السنة رفقًا به وخشية من وقوعه في الأهواء والبدع.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أُخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومنَّ الليل ولأصومن النهار ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «**آنت الذي تقول ذلك؟**» فقلت: قد قلتُه يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر**» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال: «**صم يومًا وأفطر يومين**» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك يا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٩).

رسول الله. قال: «**صم يومًا وأفطر يومًا وذلك صيام داود عليه السلام وهو أعدلُ الصيام**» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**»[1].

وفي رواية قال له: «**فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا**» قال عبد الله: فشددتُ فشُدِّد عليَّ. قال: وقال لي النبي ﷺ: «**إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر**» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددتُ أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ[2].

ومن رفقه ﷺ **بأمته** أنه سأل ربَّه تبارك وتعالى تخفيف الصلاة خشية أن يشق ذلك على الأمة فتعجز عنها، وكانت قد فرضت أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة[3].

وكان النبيُّ ﷺ يأمر أصحابه بالرفق بمن تحت أيديهم من خدم وعبيد، فعن المعرور بن سويدٍ قال: مررنا بأبي ذرٍّ بالربذة وعليه بُردٌ وعلى غلامه مثله، فقلت يا أبا ذرٍّ لو جمعت بينهما كانت حُلّةً. فقال: إنه كان بيني وبين رجلٍ من إخواني كلام، وكانت أمُّه أعجمية، فعيرته بأمّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبيَّ ﷺ فقال: «**يا أبا ذرّ إنك امرؤٌ فيك جاهلية**» قلت: يا رسول الله! من سبَّ الرجال سبّوا أباه وأمّه. قال: «**يا أبا ذرّ إنك امرؤٌ فيك**

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢)أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣)أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢).

جاهلية؛ هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبُهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

فانظر إلى وصية رسول الله بالخدم ومن في حكمهم في إطعامهم وإلباسهم والرفق بهم وإعانتهم، وانظر إلى مبادرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى تنفيذ وصية رسول الله ﷺ استمرارهم على ذلك، فهذا أبو ذر ﷺ يلبس غُلامه بردًا مماثلًا للبرد الذي يُلبس استجابة لتوجيه رسول الله ﷺ.

بل إن النبيَّ ﷺ أمر بالرفق بالمعاهدين من غير المسلمين فقال ﷺ: **«ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجُه يوم القيامة»**(٢).

وعن عائشة ﵂ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السامُ عليكم. قالت عائشة: ففهمتُها، فقلت: وعليكم السامُ واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«مهلًا يا عائشة إن الله يحبُّ الرفق في الأمر كلّه»** قالت: فقلت يا رسول الله! أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: **«قد قلت: وعليكم»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) أخرجه أبوداود (٣٠٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٤).

وفي رواية أنه قال لها: «**مهلًا يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحشَ**». قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «**أو لم تسمعي ما قلت؛ رددت عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ**»(١).

ومن جميل رفقه ﷺ رفقه في التوجيه والتعليم، وعدم لجوئه إلى الشدة والغلظة، فعن أبي أمامة قال: إن فتًى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مَهْ مَهْ(٢).

فقال: ادنُه، فدنا منه قريبًا، فجلس.

قال ﷺ: «**أتحبُّه لأمِّك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**».

قال: «**أفتحبُّه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**».

قال: «**أفتحبه لأختك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**».

قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**».

قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٠).

(٢) مه مه: كلمة زجر.

قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**».

قال: فوضع يده عليه فقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحَصّن فرجه**» قال: فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

بهذا الأسلوب الرفيق عالج النبي ﷺ مشكلة هذا الشاب، معتمدًا على الحوار الهادئ، والقناعات المشتركة التي يقبلها الجميع في هذا المجتمع، وكان يمكن للنبي ﷺ أن يدعو له بداية بأن يُذهب الله عنه هذا الداء إلا أنه ﷺ أراد أن يعلمنا كيف نواجه مشكلات الشباب وكيف نتعامل مع هذه الفئة التي تعتبر من أهم فئات المجتمع.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦).

الجوهرة الرابعة:

الصدق

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

الصدق عرفه الراغب بأنه: مطابقةُ القولِ الضميرَ والمخبَرَ عنه معًا(١).

وقال محمد الواسطيّ: هو صحةُ التوحيد مع القصد(٢).

وهو ثلاثة أنواع كما قال ابن القيم رحمه الله: قول وعمل وحال.

فالصدق في اللسان: استواءُ اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص(٣).

أما نبينا ﷺ فقد بلغ الغاية في الصدق، فهو الصادق المصدوق، الموصوف بالصدق في غير آية من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

---

(١) المفردات، ص(٤٧٨).

(٢) الرسالة القشيرية، ص(٢١٢).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠).

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهو ﷺ: «محفوظ اللسان من تحريف في قولٍ، واسترسالٍ في خبرٍ يكون إلى الكذب منسوبًا وللصدق مجانبًا، فإنه لم يزل مشهورًا بالصدق في خبره، حتى صار بالصدق مرموقًا، وبالأمانة مرسومًا.

وكانت قريش بأسرها تتيقَّن صدقَه قبل الإسلام، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذبه حسدًا، ومنهم من كذبه استبعادًا أن يكون نبيًّا أو رسولًا، ولو حفظوا عليه كذبةً نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلًا على تكذيبه في الرسالة»(١).

فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر! يا بني عديّ! لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجلُ إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش. فقال رسول الله ﷺ: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١ - ٢](٢).

---

(١) أعلام النبوة للماوردي، ص(٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٠).

وفي حديث هرقل الطويل أنه سأل أبا سفيان عن جملة من أحوال النبي ﷺ، وكان من جملة ما سأل أن قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال له هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذرَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله[١].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف، وكان أميةُ إذا انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ، فقال أميةُ لسعدٍ: انتظر حتى إذا انتصف النهار انطلقتَ فطفتَ. فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنًا! وقد أويتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعم. فتلاحيا[٢] بينهما. فقال أمية لسعدٍ: لا ترفع صوتَك على أبي الحكم؛ فإنه سيد أهل الوادي.

فقال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعنَّ متجرك بالشام. قال: فجعل أمية يقول لسعدٍ: لا ترفع صوتك وجعل يمسكه. فغضب سعد فقال: دعنا عنك فإني سمعت محمدًا يزعم أنه قاتلك.

قال: إياي؟ قال: نعم.

قال أمية: والله ما يكذب محمد إذا حدّث.

---

(١) أخرجه البخاري (٧).

(٢) **فتلاحيا**: تنازعا واختصما.

فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ. قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمدًا يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصريخ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك الثربيّ؟ قال: فأراد ألا يخرجَ. فقال له أبوجهلٍ: إنك من أشراف الوادي، فسِرْ يومًا أو يومين، فسار معهم فقتله الله[1].

فقول أمية وزوجه: والله ما يكذب محمد، خير دليل على اعترافهم بصدقه وأنه لا ينطق إلا بالحق، حتى في الأمور الغيبية التي يُعلمه الله أنها سوف تحدث في المستقبل، ورغم ذلك لم يؤمن كثير منهم، بل آثروا الكفر على الإيمان، حتى ماتوا على الكفر والعياذ بالله.

ولعل في هذه الرواية ما يبين سببًا عظيمًا من أسباب تكذيب المشركين للنبي ﷺ رغم اقتناعهم بصدقه، فقد روى الترمذي في سننه عن عليٍّ ﷺ أن أبا جهلٍ قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذِّبك، ولكن نكذّب بما جئت به. فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][2].

وعند ما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل يوم بدرٍ قائلًا: يا أبا الحكم أخبرني عن محمدٍ أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط!! ولكن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٢) كتاب بدء الوحي.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٦٤)، والمستدرك (٢/ ٣٤٥).

إذا ذهبت بنو قصيٍّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟![١].

وأخرج مسلم عن أبي ذرٍّ قال: انطلق أخي أُنيس إلى مكة، ثم أتاني فقال: لقيت رجلًا بمكة يزعم أن الله أرسله. قلت: ما يقول الناس؟ قال: يقولون: إنه لشاعر وساحر وكاهن، وكان أنيس أحد الشعراء فقال: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر، فوالله ما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر، ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون»[٢].

وهذا يدل على أن الإنسان يستطيع أن يميز الصادق من الكاذب من خلال الكلام الذي يصدر عن كل واحد منهما، والرسالة التي يحملها، والدعوة التي يدعو إليها.

والأعجب من ذلك أنهم كانوا يعلمون صدق النبي ﷺ بمجرد رؤيته وإن لم ينطق ببنت شفة. فعن عبد الله بن سلامٍ قال: «لما قدم رسول الله ﷺ انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب»[٣].

ومما يدلُّ على صدق النبي ﷺ شهادة أقرب الناس إليه بذلك، فها هو ﷺ لـمَّا فجأة الملك بغار حراء وكان من أمره ما كان، ذهب إلى خديجة

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١١/ ٣٣٣)، وابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديث صحيح. وابن ماجه (١٣٣٤)، وأحمد في المسند (٢٤١٩٣).

فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتحمل الكلَّ[١]، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ[٢].

وكذلك اعترف له ﷺ بالصدق شركاؤه في التجارة، فقد روى أبو داود عن السائب قال: «أتيتُ النبيَّ ﷺ فجعلوا يثنون عليَّ ويذكرونني. فقال رسول الله ﷺ: «**أنا أعلمكم**» يعني به. قلت: صدقتَ بأبي أنت وأمي، كنت شريكي فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري»[٣].

وكان ﷺ يعرف أنه صادق لا يقول إلا حقًّا ولذلك لما قالوا له: يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال: «**إني لا أقولُ إلا حقًّا**»[٤].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قلت يا رسول الله! أكتب ما أسمع منك. قال: «**نعم**» قلت: في الرضا والسُّخط؟ قال: «**نعم فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقًّا**»[٥].

---

(١) **تحمل الكلَّ**: تعين الضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٨).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٩٠) وقال: حديث حسن.

(٥) المسند (٦٩٣٠).

الجوهرة الخامسة:

الأمـانـة

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢].

الأمانة: «هي الحقوق المتعلقة بالذمم، لا فرق فيها بين أن تكون من حقوق الله تعالى، أو حقوق عباده، سواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية، فهي تشمل الأمانة على الأموال، والأعراض، والأنفس، والأسرار، والتكاليف الشرعية ونحو ذلك وضدّها الخيانة»(١).

وكان ابن مسعودٍ رضي الله عنه يرى أن الأمانة تدخل في كلّ شيء فقال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدَّدها، وأشدُّ ذلك الودائع(٢).

فالأمانة إذن لها مفهوم واسع لا كما يفهمه كثير من الناس من اختصاصها بحفظ الودائع والأسرار فقط ولذلك قال الكفوي في كلياته: «وكل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كصلاة وزكاة وصيام، وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»(٣).

---

(١) كتاب الأخلاق الدينية للشيخ عبد الرحمن الجزيري، ص(١٢٠).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب للألباني رقم (٢٩٩٥).

(٣) الكليات، ص(٢٦٩).

وقال صاحب المفهم: «الأمانة: كل ما يوكل إلى الإنسان حفظه ويخلَّى بينه وبينه»(١).

وقال القرطبي: «والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح وهو قول الجمهور»(٢).

إن أعظم من قام بأداء الأمانة على وجهها وعلى اختلاف صورها هو نبينا محمد ﷺ، ولا عجب في ذلك لأن الله تعالى قد استأمنه على أعظم الأمانات، وهي أمانة الوحي والرسالة، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. ولذلك لما قسَّم النبيّ ﷺ بعض الأموال على أربعة نفر، واعترض رجل قائلًا كنا نحن أحقَّ بهذا من هؤلاء، وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**»(٣).

فإذا كان الله تعالى قد استأمن رسوله ﷺ على الوحي وتبليغه كما أُنزل، فكيف لا يكون أمينًا على الأموال التي كلف بتوزيعها بحسب ما يراه من مصالح دينية ودنيوية، وقد يعطي أناسًا ويدع آخرين ولا يكون بذلك خارجًا عن قانون الأمانة، لأنه أعلم بمن أعطى وبمن منع، ومثال ذلك لما وجَد بعض الأنصار من إعطاء رسول الله ﷺ قريشًا وتركهم، فقال بعض

---

(١) المفهم (٢/ ١٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

حُدَثائهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فحُدّث رسول الله ﷺ بذلك، فجمعهم وبين لهم سبب إعطاء هؤلاء فقال: «**إني أعطي رجالًا حديثي عهدٍ بكفر أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ، فوالله لَـمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به**»(١).

وكان زعماء اليهود وأحبارهم يعرفون أمانة النبي ﷺ إلا أنهم أنكروا ما يعرفون، وجحدوا ما يعلمون، ولذلك فقد قالت عائشة ؓ: كان على رسول الله ﷺ ثوبانِ قِطْرِيَّان(٢) غليظان، فكان إذا قعد فعرِق ثَقُلا عليه. فقدم بزٌّ(٣) من الشام لفلان اليهودي، فقلت: لو بعثتَ إليه فاشتريتَ منه ثوبين إلى الميسرةِ. فأرسل إليه فقال: قد علمتُ ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدرهمي، فقال رسول الله ﷺ: «**كذب؛ قد علم أني من أتقاهم لله وآداهم للأمانة**»(٤).

وكان النبيُّ ﷺ مشتهرًا بالأمانة قبل النبوة حتى لقبه قومُه بالأمين.

قال ابن إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣١)، ومسلم(١٠٥٩).

(٢) **قطريان**: ضرب من البرود فيه حمرة، وله أعلام وفيه بعض خشونة.

(٣) **بزٌّ**: ثياب.

(٤) أخرجه الترمذي (١٢١٣)، وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني.

(٥) الشفا (١/ ١٧٢).

وكان الناس – مع تكذيبهم له – يضعون عنده أموالهم وودائعهم لأنهم يعلمون أمانته وتعظيمه شأن الأمانة.

وقد أخرج ابن سعد عن علي رضي الله عنه قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة، أمرني أن أقيم بعده، حتى أؤدي ودائع كانت عنده للناس، ولذا كان يسمى الأمين[١].

واختارته خديجة رضي الله عنها ليتجر بأموالها لما اشتهر به من الصدق والأمانة.

ولما كان عمره ﷺ خمسًا وثلاثين أرادت قريش أن تُعيدَ بناء الكعبة، فلما وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه. فقالت كل قبيلة: نحن نضعه، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخلٍ عليهم، فكان رسول الله ﷺ فقالوا: جاء الأمين، فرضوا به[٢].

إن صدقه ﷺ وأمانته حيرت عقول مكذبيه، حتى قال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيبَ وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر[٣].

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن دعوة النبي ﷺ قومه أجابه أبو سفيان بأنه: يأمر بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول لابن كثير، ص(٨).

(٣) الشفا (١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

وكذا وصفه جعفر بن أبي طالب لما سأله النجاشي عن هذا الدين الذي فارقوا لأجله قومهم وأرضهم، فقال جعفر: «أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيءُ إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، كنا على ذلك حتى بعث الله ﷻ إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وعدّد عليه أمور الإسلام[1].

والله تعالى عظم شأن الأمانة فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأمر بأداء الأمانة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وحذَّر من خيانة الأمانة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

والنبي ﷺ شدد في أمر الأمانة وحذر من إضاعتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٠٢) وابن خزيمة (٢٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩).

ولـمَّا أراد أبو ذر ﷺ الولاية قال له النبيّ ﷺ: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه فيها**»(١).

وبين ﷺ أهمية الأمانة في تيسير أداء التكاليف الشرعية فقال: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة**»(٢).

قال النووي: «وقال صاحب التحرير: الأمانة في الحديث هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة في قلب العبد قام حينئذٍ بأداء التكاليف، واغتنم ما يردُ عليه منها، وجدَّ في إقامتها»(٣).

بل إنه ﷺ أشار إلى أهمية الأمانة في كمال إيمان العبد فقال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(٣) شرح مسلم للنووي (٢/ ١٦٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥، ١٥٤). والطبراني في الكبير (٩/ ٨١).

الجوهرة السادسة:

الصبر

قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الصبر كما قال ابن القيم هو: «حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية»(١).

وقد كان النبي ﷺ أعظم الناس صبرًا؛ ابتلى باليُتمِ والحاجة في صغره فصبر، وصبر على تكذيب المشركين ورميهم له بالسحر والكهانة والجنون وحبّ الظهور والرغبة في الملك.

وصبر على مفارقة الأوطان وتجرع مرارة الغربة.

وصبر على مداراة الخلق ودعوتهم إلى الحق، وتأليف قلوبهم بعد طول شتاتٍ ونفرة.

وصبر على فقد الأبناء والأصحاب والأحباب، وعلى معاناة الآلام والأوجاع والأمراض.

وصبر على الفقر والجوع والحاجة، وقد عرضت عليه خزائن الذهب والفضة فرفضها وآثر عيش الفقراء والمساكين.

---

(١) الروح، ص(٢٤١).

قال ابن الجوزي: «من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله ﷻ في أفعاله، وأن يدري من أين ينشأ الرضا، فليتفكر في أحوال رسول الله ﷺ، فإنه لَمَّا تكاملت معرفته بالخالق سبحانه، رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرفُ في مملوكه، ورآه حكيمًا لا يصنع شيئًا عبثًا، فسلَّم تسليم مملوكٍ لحكيم؛ فكانت العجائب تجري عليه، ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال: لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصفِ الرياح.

هذا سيد المرسلين ﷺ بعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفرُّ من مكان إلى مكان، واستتر في دار الخيزران[1]، وهم يضربونه إذا خرج ويدمون عقبه، وأُلقي السَّلى على ظهره وهو ساكت ساكن.

ويخرج في كلِّ موسم فيقول: من يؤويني من ينصرني؟. ثم خرج من مكة فلم يقدر على العودِ إلا في جوارِ كافر، ولم يوجد من الطبع تأفف، ولا من الباطن اعتراض، إذ لو كان غيره لقال: يا رب! أنت مالكُ الخلق، وقادر على النصر، فَلِمَ أُذلّ؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق؟! فلم نعطي الدنيةَ في ديننا؟ ولـمَّا قال هذا قال له الرسول ﷺ: «**إني عبد الله ولن يضيعني**»[2] فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما: فقوله: «**إني عبد الله**»: إقرار بالملك وكأنه قال: أنا مملوك يفعل بي ما يشاء. وقوله: «**لن يضيعني**» بيان لحكمته وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا.

---

(١) هي دار الأرقم وقد آلت إلى الخيزران أم هارون الرشيد فيما بعد.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

ثم يبتلى بالجوع فيشدُّ الحجر[1]، ولله خزائن السماوات والأرض ويقتل أصحابه، ويشجُّ وجهُه، وتُكسر رباعيتُه[2]، ويمثَّل بعمِّه وهو ساكت، ثم يرزق ابنًا ويُسلب منه، فيتعلّل بالحسن والحسين، فيخبر بما سيجري عليهما، ويسكنُ بالطبع إلى عائشة فيُنَغَّص عيشه بقذفها.

ويبالغ في إظهار المعجزات فيقام في وجهه مسيلمةُ والعنسيُّ وابنُ صياد.

ويقيم ناموسَ الأمانة والصدق فيقال: كذاب ساحر، ثم يعلقه المرض فيوعك كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت، فإن أخبر بحاله فليعَلِّم الصبر، ثم يشدَّد عليه الموت، فيُسلب روحه الشريفة، وهو مضطجعٌ في كساءٍ ملبَّد وإزاءٍ غليظ، وليس عندهم زيتٌ يوقد به المصباح ليلتئذٍ...

هذا الشيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبيٌّ قبله، ولو ابتليت به الملائكةُ ما صبرت»[3].

لقد صبره ﷺ على المخالفين صبر الكرام، ويدلُّ على ذلك أن الله ﷻ لـمَّا فتح عليه الفتوح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، لم ينقطع صبره، بل ازداد صبرًا وتَحَنُّنا على الناس ولطفًا بهم. فعن ابن مسعودٍ ؓ قال: لـمَّا قَسَّم النبي ﷺ قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله،

---

(١) **فيشدُّ الحجر**: أي: على بطنه كعادة العرب عند الجوع الشديد.

(٢) **رباعيته**: الرباعية: السن التي بعد كل ثنية وهي أربع رباعيات.

(٣) صيد الخاطر، ص(٣٠٧، ٣٠٨).

فأتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته، فتغير وجهه ثم قال: «**رحمة الله على موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

ويبين ﷺ شدةَ ما لقيه من المشركين وما كان عليه في كثير من أيامه من فقر وحاجة فيقول: «**لقد أوذيت في الله ﷻ وما يؤذى أحد، وأُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون ما بين يومٍ وليلة، وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكلُه ذو كبدٍ، إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ**»(٢).

فهذا يدلُّ على صبره ﷺ على أذى المشركين ويدل كذلك على صبره على ضيق العيش وشدة الحياة، وسوف نذكر أمثلة كثيرة في صبره ﷺ في حياته ومعيشته وذلك عند الحديث عن زهده ﷺ(٣).

ومن أمثلة صبره ﷺ على أذى المشركين ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمَّمًا ويلعنون مذمّمًا، وأنا محمد**»(٤).

وكان كفار قريش لشدة كراهتهم له ﷺ لا يسمونه باسمه الدالّ على المدح، فيعدلون إلى ضده فيقولون: مذمم، وهو ليس اسمه ولا معروفًا به،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وأحمد (٣/ ١٢٠) وصححه الألباني.

(٣) انظر، ص(١١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٣٢).

فكان الذي يقع منه مصروفًا إلى غيره[١]. وكان النبي ﷺ يصبر منهم على هذا الأذى لأنه يعلم أنهم إنما يقصدونه هو.

ومن ذلك ما جاء عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: سألت ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون بالنبيّ ﷺ قال: بينا النبيّ ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط – لعنه الله – فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبوبكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله[٢].

ومن أعظم الأمثلة على صبره ﷺ في مقام الدعوة ما لقيه من أهل الطائف من العنت والاستهزاء والسخرية، ثم إنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما اطمأن رسول الله ﷺ ناجى ربّه قائلًا: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيدٍ يتجهّمني، أم إلى عدو ملَّكْتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا**

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٦، ٤٨١٥).

والآخرة، من أن تنزل بي غَضَبَك، أو يحلّ عليَّ سخطُك، لك العتبى[1] **حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»**[2].

وقد ذكرنا أمثلة كثيرة تتعلق بصبره ﷺ وذلك عند الحديث عن حلمه ورفقه، وعفوه وشجاعته وزهده ورحمته بما يغني عن إعادتها هنا.

ومن أنواع صبره ﷺ: صبره على طاعة ربه، فقد كان أعبد الناس لله ﷻ، وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فلما قيل له: أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا**»[3].

وكان ﷺ **يواصل الصيام**، وينهى أصحابه عن الوصال، فقال: «**إياكم والوصال**» مرتين، قالوا: إنك لتواصلُ، قال: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من العمل ما تطيقون**»[4].

---

(١) **العتبى**: الرضا. والمعنى: أسترضيك حتى ترضى.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٢٠)، والروض الأنف (٢/ ٢٣١)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦٦).

الجوهرة السابعة:

العفو

قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

العفو كما قال ابن القيم هو: «إسقاط حقِّك جودًا وكرمًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر التركَ رغبةً في الإحسان ومكارم الأخلاق»(١).

وكان النبيُّ ﷺ يحبُّ العفو ويميل إليه، وكان يقول: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»(٢).

وفي غزوة بدر هزم الله تعالى المشركين فقتل منهم سبعون رجلًا، وأسر منهم سبعون، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكرٍ وعمر وعليًّا رضي الله عنهم جميعًا.

فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العمِّ والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عضدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**» قال: والله ما أرى ما رأى أبو بكرٍ، ولكني أرى أن تمكنني من فلانٍ – قريبًا لعمر – فأضربَ عنقه، وتمكن عليًّا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلانٍ أخيه

(١) الروح، ص(٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ ولم يهو ما قال عمر، فأخذ منهم الفداء.

فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) [الأنفال: ٦٧].

وهذا يدلُّ على أنه ﷺ كان يميل إلى العفو أكثر من ميله إلى العقوبة والانتقام، وهذا لا يمنع من معاقبته ﷺ من تحتمت عقوبته وكان الاصلاح في ذلك، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإذا كان الإصلاح في العفو، كان العفو أحمد، وإذا كان الإصلاح في العقوبة كان ترك العفو أحمد.

ومن نماذج عفو النبي ﷺ عفوه عن أهل مكة بعد الفتح، فإنه ﷺ لـمَّا فتح مكة ودخلها ظافرًا منتصرًا، خاف أهل مكة من انتقام المسلمين، الذين عذبوهم وقهروهم وأخرجوهم من ديارهم وصادروا أموالهم، فقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبًا فقال: «**الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا معشر قريش! ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟** قالوا: نقول خيرًا ونظنُّ خيرًا؛ نبيٌّ كريم، وأخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، وقد قدرت.

فقال رسول الله ﷺ: «**فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾** [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

---

(١) المسند للإمام أحمد (١/ ٣٠، ٣١).

فخرجوا كأنهم نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام[1].

عفا عنهم رسول الله ﷺ وهم الذين كفروا به وناصبوه العداء، وآذوه وآذوا أصحابه.

عفا عنهم وهم الذين وضعوا سلا الجزور على ظهره وهو ساجد.

عفا عنهم وهم الذين حاصروه وأصحابه في شعْب أبي طالبٍ وضيقوا عليهم حتى اضطر بعضهم إلى أكل ورق الشجر من الجوع.

عفا عنهم وهم الذين أخرجوه من بلده وتآمروا على قتله.

إنها أخلاق النبوة وهدايات الرسالة التي تأبى الانتقام وتركن إلى التسامح والصفح: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ومن أمثلة عفو النبيِّ ﷺ؛ عفوه عن ثمامة بن أُثال سيد أهل اليمامة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلًا قِبَل نجدٍ فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**».

قال: عندي يا محمد خير؛ إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٤٢).

حتى كان من الغد فقال له: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» قال: ما قلت لك؛ إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد فقال له: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخلٍ قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد! والله ما كان في الأرضِ وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلِّها إليَّ. والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدينِ كلِّه إليَّ. والله ما كان من بلدٍ أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلادِ كلِّها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[1].

فانظر كيف كان العفو مغيرًا للقلوب، ومبدلًا للأحوال، وشارحًا للصدور، ومبددًا لظلمات الكفر وضلالات الإشراك.

ومن أمثلة عفو النبي ﷺ: عفوه عن المرأة اليهودية التي وضعت له السمَّ في الشاة فأكل منها ﷺ فلم يُسِغْها.

---

(١)أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

روى البيهقي بسنده عن أبي هريرة أن امرأةً من اليهود أهدت لرسول الله ﷺ شاةً مسمومة فأكل، فقال لأصحابه «**أمسكوا فإنها مسمومة**» قال لها: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: أردت إن كنت نبيًّا فيطلعك الله، وإن كنت كاذبًا فأريح الناس منك.

قال: فأعرض عنها[1].

ومن طريق أبي نضرة عن جابر نحوه وفيه: «**فلم يعاقبها**».

ومن أمثلة عفو النبي ﷺ ما رواه جابر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجدٍ، فلما قفل[2] رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه[3]، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرةٍ[4] فعلَّق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابيٌّ جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتًا[5]، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس**» ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[6].

---

(١) سنن البيهقي (٨/ ٤٦، ٤٧).

(٢) **قفل**: رجع.

(٣) **العضاه**: كل شجر عظيم الشوك.

(٤) **سمرة**: شجرة.

(٥) **صلتًا**: أي مسلولًا.

(٦) أخرجه البخاري، رقم(٤١٣٥).

قال الحافظ ابن حجر: ووقع في رواية ابن إسحاق بعد قوله: «**قال: الله**» فدفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: لا أحد. قال: «**قم فاذهب لشأنك**». فلما ولَّى قال: «**أنت خير مني**»، ثم أسلم بعد[1].

فانظر كيف كان العفو سببًا في إسلام هذا الرجل وهدايته بل في هداية غيره، فقد ذكر الواقدي أن هذا الرجل أسلم وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير. كما كان العفو سببًا في هداية ثمامة بن أثال، وهداية كثير من أهل مكة يوم الفتح كما تقدم بيانه مما يدلُّ على أهمية هذا الخلق الكريم واستثمار النبي ﷺ له في مجال الدعوة.

ومن نماذج عفو النبيّ ﷺ ما رواه أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ركب حمارًا عليه إكاف[2]، تحته قطيفة فدكية[3]، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدرٍ، حتى مرَّ بمجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجةُ الدابة[4] خمَّر[5] عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبّروا علينا،

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٩٢).

(٢) **إكاف**: ما يوضع على الحمار.

(٣) **قطيفة فدكية**: منسوبة إلى فدك وهي قرية قرب المدينة.

(٤) **عجاجة الدابة**: ما ارتفع من غبار حوافرها.

(٥) **خـمَّر**: غطى.

فسلّم عليهم النبي ﷺ، ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء لا أحسن من هذا؛ إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا، فإنا نحبُّ ذلك.

فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبيُّ ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: «**أي سعد! ألم تسمع ما قال أبو حُباب: قال كذا وكذا**» قال سعد: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل البحيرة[1] أن يتوجوه، فيُعصّبوه بالعصابة[2]، فلما ردَّ الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاكه شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه النبي ﷺ[3].

قال النووي: «في هذا الحديث بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ من الحلم والصفح والصبر على الأذى في الله تعالى، ودوام الدعاء إلى الله تعالى، وتألف قلوبهم»[4].

---

(١) **البحيرة**: القرية.

(٢) **يعصبوه بالعصابة**: يجعلوه ملكًا عليهم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ١٥٩).

الجوهرة الثامنة:

الكرم والجود

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

جاء في التعريفات للجرجاني: الكرم: هو الإعطاء بالسهولة.

والكريم: من يوصل النفع بلا عوض[1].

والجود: كما قال ابن رجب: «هو سعة العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف بالجود»[2].

والنبي ﷺ كان أجود الناس، حتى قال حسان بن ثابت في ذلك:

وما فقد الماضون مثلَ محمدٍ ... ولا مثلُه حتى القيامة يُفْقَدُ

أعفّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ ... وأقرب منه نائلًا لا ينكَّدُ

وأبذلُ منه للطريف[3] وتالدٍ[4] ... إذا ضنَّ[5] معطاء بما كان يتلدُ[6]

---

(١) التعريفات، ص(٢٣٦).

(٢) لطائف المعارف، ص(٣٠٤).

(٣) **الطريف**: المستفاد من المال حديثًا.

(٤) **التالد**: المكتسب من المال قديمًا.

(٥) **ضن**: بخل.

(٦) **يتلد**: يجمع.

قال ابن رجب: «ولـمَّا كان الله ﷻ قد جبل نبيَّه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

فكان رسول الله ﷺ أجود الناس كلّهم...

وكان جوده بجميع أنواع الجود؛ من بذل العلم والمال، وبذلِ نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم.

ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة ﵂ في أول مبعثه: والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف وتحملُ الكلّ[2]، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[3].

ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أضعافًا كثيرة»[4].

عن ابن عباسٍ ﵄ قال: كان النبيُّ ﷺ أجودَ الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[5].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) **الكل**: الثقل من كل ما يتكلّف، والمعنى: تعين الضعيف واليتيم وذا العيال.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) لطائف المعارف، ص(٣٠٥، ٣٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٠٨).

وعند أحمد زيادة: «فلا يسأل عن شيء إلا أعطاه»[(١)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا»[(٢)].

قال الفرزدق وأجاد:

ما قال لا قطّ إلا في تشهده لولا التشهدُ كانت لاؤه نعم

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة[(٣)].

قال أنس بعد ذكر هذا الحديث: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها.

وعن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح – فتحِ مكة – ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحنينٍ، فنصر الله دينَه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذٍ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ[(٤)].

---

(١) المسند (١/ ٢٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

ومن كرم النبي ﷺ أنه كان يعطي الشيء وإن كان محتاجًا إليه، فيؤثر غيره على نفسه صلوات ربي وسلامه عليه، فعن سهل بن سعدٍ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتُها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره.

فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها. فقال ﷺ: «**نعم**» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم ما أحسنت؛ لبسها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يردُّ سائلًا، فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه»[(١)].

ومن كرم النبي ﷺ **وجوده** أنه كان يعد بالعطاء في المستقبل وإن لم يملكه في الحاضر وهذا من كماله ﷺ وسخاوة نفسه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو قد جاءنا مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» وقال بيديه جميعًا. فقُبض النبي ﷺ قبل أن يجيء مال البحرين، فقدم على أبي بكرٍ بعده، فأمر مناديًا فنادى: من كانت له على النبيّ ﷺ عِدَةٌ أو دين فليأت، قال: فقمت فقلت: إن النبيَّ ﷺ قال: «**لو قد جاءنا مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» فحثى أبو بكرٍ مرة ثم قال لي: عدَّها، فعددتها فإذا هي خمسمائة، فقال: خذ مثليها[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).

قال في «المفهم»: «هذا يدلُّ على سخاوة نفس النبي ﷺ بالمال، وأنه ما كان لنفسه به تعلق، فإنه كان لا يعدّه بعددٍ، ولا يقدره بمقدار، لا عند أخذه، ولا عند بذله»(١).

وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه صفة البخل وبين أنه لو تيسر له الحال أعطى عطاءً يعجز عنه الملوك، فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه بينما كان يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَه من حنينٍ(٢)، فعلقه الناس يسألونه، حتى اضطروه إلى سَمُره(٣)، فَخَطِفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العَضَاه(٤) نَعَما، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**».

ومن كرم النبي ﷺ أنه كان يتلمس أهل الحاجة ويدعوهم إلى ما تيسر لديه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبوبكرٍ فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ، فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨/ ٢١٧).

(٢) **مقفله من حنين**: أي عند رجوعه من غزوة حنين.

(٣) **سمرة**: نوع من الشجر.

(٤) **العضاه**: كل شجر عظيم الشوك.

قال: «**أبا هِرّ**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**الْـحَقْ**» ومضى فتبعتُه، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنًا في قَدَحٍ فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: «**أبا هِرّ**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**الْـحَقْ إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهلٍ ولا مال، ولا على أحدٍ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. قال: فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوَّى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: «**يا أبا هرّ**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**خذ فأعطهم**» قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يَرْوى، ثم يردُّ عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح، حتى انتهيت إلى النبيِّ ﷺ وقد رويَ القوم كلُّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسم فقال: «**أبا هرّ**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**بقيت أنا وأنت**» قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «**اقعد فاشرب**» فقعدت فشربت. فقال: «**اشرب**» فشربت، فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. قال: «**فأرني**» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

ويظهر جود النبي ﷺ في هذه القصة من وجوه:

الأول: أنه استتبع أبا هريرة دون أن يطلب منه أبو هريرة شيئًا، وإنما بمجرد أن رآه ونظر في وجهه علم حاجته فطلب منه اللحاق به.

الثاني: أنه استتبعه وهو لا يعلم هل يوجد في بيته شيء يكفيه وأهله والضيف أم لا.

الثالث: أنه كان يعطي أهل الصفة من الصدقات ولا يأخذ منها شيئًا، وكان يعطيهم أيضًا من الهدايا ويصيب منها.

الرابع: أنه بدأ بأضيافه حتى رووا جميعًا، ثم شرب هو الفضلة.

ومن كرم النبي ﷺ أنه كان يشتري السلعة، فيعطي ثمنها ولا يأخذها، فإما أن يعطيها لصاحبها وإما أن يعطيها لآخر وهذا من كمال جوده ﷺ.

فعن جابرٍ ﷺ قال: أقبلنا من مكة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ، فاعتلَّ جملي، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما لبعيرك؟**» قال: قلت: عليلٌ. قال: فتخلف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قدَّامها يسير. قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «**كيف ترى بعيرك؟**» قال: قلت: بخير، قد أصابته بركتك ثم قال لي: «**بعني جملك هذا**» قال: قلت: لا، بل هو لك. قال: «**لا بل بعنيه**» قلت: لا بل هو لك يا رسول الله، قال: «**لا بل بعنيه**» قال: قلت: فإن لرجلٍ عليَّ أوقية ذهب فهو لك بها. قال: «**قد أخذته، فتبلَّغ عليه إلى المدينة**» قال: فلما قدمت المدينة قال رسول الله ﷺ لبلالٍ: «**أعطه أوقيةً من**

ذهبٍ وزده». قال: فأعطاني أوقيةً من ذهب، وزادني قيراطًا. قال: فقلت: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ، فكان في كيسٍ لي فأخذه أهل الشام يوم الحَرَّة(١).

وفي رواية أنه قال: «**يا جابر أتوفيت الثمن**» قلت: نعم. قال: «**لك الثمن ولك الجمل، لك الثمن ولك الجمل**»(٢).

وفي رواية: فما زال يزيدني ويقول: «**والله يغفر لك**»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في سيرٍ، فكنت على بَكْرٍ صعب لعمر، فكان يغلبني فيتقدم أمام القوم، فيزجره عمر ويردّه، ثم يتقدم فيزجره عمر ويردّه، فقال النبيُّ ﷺ لعمر: «**بعنيه**» قال: هو لك يا رسول الله. قال: «**بعنيه**» فباعه من رسول الله ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**هو لك يا عبد الله بن عمر، تصنعُ به ما شئت**»(٤).

ومن كرم النبيّ ﷺ أنه ما كان يمنع سائلًا وإن أساء الأدب وأغلظ له عند الطلب، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبيِّ ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة، نظرت إلى صفحة عنقِ رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧١٥).

(٣) أخرجه مسلم (٧١٥).

(٤)أخرجه البخاري (٢١١٥).

جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء»(١).

ومن دلائل جوده ﷺ أنه إذا جاءه المال أعطى كلَّ من رآه، ولم يقم حتى ينفد مهما كان مقداره، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتي النبي ﷺ بمالٍ من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**» وكان أكثر مالٍ أُتي به رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله: أعطني فإني فاديتُ نفسي وفاديت عقيلًا. فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ**»... فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١).

الجوهرة التاسعة:

العدل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ...﴾ [النحل: ٩٠].

العدل كما في تعريفات الجرجاني هو مصدر بمعنى العدالة، وهو الاعتدالُ والاستقامة، وهو الميل إلى الحق[(١)].

وكان النبيُّ ﷺ أعدل الناس، فقد جاءه ذو الخويصرة التميمي والنبيُّ ﷺ يقسم الأموال فقال: يا رسول الله اعدِلْ! فقال رسول الله ﷺ: «**ويلك ومن يعدل إذا لم أعدلْ؟ قد خبتُ وخسرتُ إذا لم أكن أعدل**»[(٢)]. فهو ﷺ الذي فضله الله تعالى وعدَّله وائتمنه على وحيه، فكيف لا يعدل وكيف لا يقسط؟ وهو القائل: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا**»[(٣)].

قال ابن حجر: «وفي حديث عبد الله بن عمرٍو: «**عند من يلتمس العدل بعدي**». وفي رواية مقسم عنه: فغضب ﷺ وقال: «**العدل إذ لم يكن عندي فعند من يكون؟**». وفي حديث أبي بكرة «**فغضب حتى احمرَّت**

---

(١) التعريفات للجرجاني، (١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

وجنتاه» ومن حديث أبي برزة قال: فغضب غضبًا شديدًا وقال: «**والله لا تجدون بعدي رجلًا هو أعدل عليكم مني**»(١).

ومن صور عدل النبي ﷺ أن امرأة شريفة من بني مخزوم سرقت، فأهم قريشًا شأن هذه المرأة، وأرادوا أن يتوسطوا عند النبيِّ ﷺ في درء الحدِّ عنها، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ، حِبُّ رسول الله ﷺ، فأُتي بها رسول الله ﷺ فكلّمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسولِ الله ﷺ وقال: «**أتشفع في حَدٍّ من حدود الله؟**» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله!

فلما كان العشِيُّ قام رسول الله ﷺ فاختطبَ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد: فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنتَ محمدٍ سرقت، لقطعت يدها**»(٢).

هذه هي العدالة النبوية التي لا تفرق بين شريف ووضيع، ولا بين غني وفقير، أو بين حاكم ومحكوم، فالكلُّ في ميزان الحق والعدل سواء.

وكان النبيُّ ﷺ محبًّا للعدل حتى قبل أن يختاره الله تعالى للنبوة، فقد شهد قومه نشأة حلف الفضول، ذاك الحلف الذي أنشئ لإقامة العدل ونصرة المظلوم. وكان سبب هذا الحلف أن الرجل من العرب أو العجم كان يقدم

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

بتجارته إلى مكة، فربما ظلم بها، فقدم رجل من بني أبي زبيد بسلعة فباعها من العاص بن وائل السهمي، فظلمه فيها وجحده ثمنها، فناشده الله فلم ينفعه ذلك عنده، فنادى ذات يومٍ عند طلوع الشمس وقريش في أنديتها:

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطنِ مكةَ نائي الحيّ والنفرِ

ومحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرته ... يا آل فهرٍ وبين الركن والحجر

فقال الزبير: ما لهذا مترك، فجمع إخوته واجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب بن عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى بن قُصَي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة بن كعب، في دار أبي زهير عبد الله بن جدعان القرشي ثم التيمي، فتحالفوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا إلا نصروه ورفدوه وأعانوه حتى يؤدَّى إليه حقُّه، وينصفه ظالمه من مظلمته، وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بلَّ بَحْرٌ صوفَةً[١]، وأكّدوا ذلك وتعاقدوا عليه وتماسحوا قيامًا[٢].

وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف وله من العمر نيف وعشرون عامًا، وكان يقول بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحبُّ أن لي به حُمر النعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبتُ**»[٣].

(١) مثل يطلق للدلالة على التأبيد وصوف البحر كائن حيواني على شكل الصوف.

(٢) أنساب الأشراف (١/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه (٦/ ٣٦٧)، وفي معرفة السنن والآثار (٥/ ١٧٥)، وصححه الألباني.

ومن دلائل حبه ﷺ للعدل قبل النبوة ما رواه أبو نعيم أن رجلًا كان له على أبي جهلٍ دين، فلم يعطه، فقيل له: ألا ندلك على من يستخرج لك حقَّك؟ قال: بلى. قالوا: عليك بمحمدِ بن عبد الله، فأتاه فجاء معه إلى أبي جهلٍ فقال: «**أعطه حقَّه**» قال: نعم. فدخل البيت، فأخرج دراهمه فأعطاه. فقالوا لأبي جهل: فرقت[١] من محمدٍ كلَّ هذا؟ قال: والذي نفسي بيده! لقد رأيت معه رجالًا معهم حراب تلمع، لو لم أعطه لخفت أن يُبْعجَ[٢] بها بطني[٣].

وحدث مثل هذا أيضًا في الإسلام فعن ابن أبي حدردٍ الأسلمي رضي الله عنه أنه كان ليهوديٍّ عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه فقال: «يا محمد! إن لي على هذا أربعة دراهم، وقد غلبني عليها».

فقال رسول الله ﷺ: «**أعطه حقَّه**» قال: والذي بعثك بالحقِّ ما أقدر عليها.

فقال ﷺ: «**أعطه حقَّه**» قال: والذي بعثك بالحقِّ ما أقدرُ عليها، قد أخبرتُه أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تُغْنِمُنَا شيئًا، فأرجع فأقضيه.

فقال ﷺ: «**أعطه حقَّه**» وكان النبيُّ ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يراجع.

فخرج ابن أبي حَدْردٍ إلى السوق، وعلى رأسه عصابةٌ، وهو مُتَّزرٌ ببردٍ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر مني هذه البردة، فباعها منه بأربعة الدراهم.

---

(١) **فرقت**: خفت.

(٢) **يبعج**: يشق.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢١٠).

قال: فمرت عجوز فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ؟ فأخبرها فقالت: ها دونك هذا؛ ببُردٍ عليها طرحته عليه(١).

ومن أمثله عدلِ النبي ﷺ أن النعمان بن بشيرٍ قال: أعطاني أبي عَطيةً، فقالت أمُّه عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى يشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحةَ عطيةً، فأمرتني أن أُشهدك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟**» قال: لا. قال: «**فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**» فرجع بشير فردَّ عطيته(٢).

وفي رواية قال: «**ألك بنون سواه؟**» قال: نعم. قال: «**فكلُّهم أعطيت مثل هذا؟**» قال: لا. قال: «**فلا أشهد على جور**»(٣).

وقد بلغ من عدل النبيِّ ﷺ أنه كان يعطي القود من نفسه، ولا تمنعه منزلته عند الله ومكانته عند الخلق من أن يفعل ذلك، فعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: بينما هو يحدِّث القوم، وكان فيه مزاحٌ، بينا يُضْحِكُهم، فطعنه النبيُّ ﷺ في خاصرته بعودٍ فقال: أصبرني – أي أقدني من نفسك – فقال ﷺ: «**اصطبر**» – أي اقتصّ – فقال: إن عليك قميصًا وليس عليَّ قميص، فرفع

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٣)، والطبراني في الأوسط (٤٥١٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢٣/ ١٥).

النبيُّ ﷺ عن قميصه، فاحتضنه، وجعل يقبل كشحَه[١] وقال: إنما أردت هذا يا رسول الله[٢].

وروى ابن سعدٍ عن عمرو بن شعيب قال: لـمَّا قدم عمر الشام أتاه رجل يستأذنه على أميرٍ ضربه، فأراد عمر أن يقيده، فقال له عمرو بن العاص: أتقيده منه؟ قال: نعم. قال: فلا نعملُ لك عملًا. قال عمر: لا أبالي أن أقيده منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يعطي القود من نفسه. قال: أفلا نرضيه؟ قال: أرضوه إن شئتم[٣].

ومن نماذج عدله ﷺ أنه ما كان يتميز عن أصحابه في لباسٍ أو طعام أو مركبٍ، بل كان ﷺ يعمل معهم ويجاهد معهم، قال سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهو يحفر، ونحن ننقل التراب، ويمرُّ بنا فقال:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصارِ والمهاجرة[٤]

ومن كمال عدله ﷺ أنه كان يصبر على أذى بعض أصحاب الحقوق وسوء أخلاقهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان لرجلٍ على رسول الله ﷺ

(١) **كشحه**: الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

(٢) أخرجه أبوداود (٥٢٢٤)، والحاكم في المستدرك (٥٢٦٢)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٣٧٤) وقال الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٧/ ٦٨): رجاله ثقات.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٤).

حقٌّ، فأغلط له، فهمَّ به أصحاب النبي ﷺ فقال النبيُّ ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحقِّ مقالًا**» فقال لهم: «**اشتروا له سِنًّا فأعطوه إياه**».

فقالوا: إنا لا نجد إلا سنًّا هو خير من سِنِّه.

قال: «**فاشتروه فأعطوه إياه، فإن من خيركم أحسنكُم قضاءً**»[1].

وأما عدله ﷺ مع أزواجه، فقد كان يقوم به حقَّ القيام، حيث كان يقسم بينهن ما يقدر على قسمته من مبيتٍ ونفقة ونحوهما، بالقسط التامِّ سفرًا وحضرًا، يبيت عند كلّ واحدةٍ ليلة، وينفق عليهن ما في يده بالسوية، وبنى لكلٍّ واحدة حجرة مستقلة، وكان إذا سافر أقرع بينهن، وخرج بالتي تخرج لها القرعة، ولأنه ﷺ حجَّ مرة وحدة فقد اصطحب معه جميع نسائه في هذه الحجة إتمامًا للعدل، ولئلا يحرم واحدةً منهن من هذا الفضل.

ولم يفرط ﷺ في شيءٍ من ذلك حتى في مرض موته، حيث كان يدار به على نسائه كلّ واحدةٍ في نوبتها، حتى شقَّ عليه ذلك، وعلمن أنه يحبُّ أن يستقرَّ في بيت عائشة ﵂ وعن سائر أمهات المؤمنين، فأذِنَّ له أن يمرَّض في بيتها، فمكث فيه حتى لقي الله تعالى.

ومع ذلك العدل التام الذي كان يقوم به معهن، كان يعتذر إلى الله تعالى ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩٠)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٣٦)، والترمذي (١١٤٠)، وابن ماجه (١٩٧١).

الجوهرة العاشرة:

الوفاء

قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

الوفاء كما قال أبو البقاء الكفوي: «هو القيام بمقتضى العهد»[١].

وفي القرآن: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]: وفّى وأتم ما التزمه أو أمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله[٢].

وكان النبي ﷺ أعظم الخلق وفاءً، وقد شمل وفاؤه ﷺ كافة الخلق، حتى شمل أعداءه المحاربين له، المكذبين لدعوته.

وفاؤه ﷺ لأعدائه:

ومن أمثلة وفاء النبي ﷺ بالعهد مع الكفار: ما جاء في قصة الحديبية، وفي ذلك الصلح الذي أبرمه النبيُّ ﷺ مع مندوب قريش سهيل بن عمرٍو، وكان من بنود هذا الصلح: أن أي رجلٍ يأتي إلى النبي ﷺ من قريشٍ خلالَ مدةِ هذا الصلح يردّه إليهم وإن كان مسلمًا، وبينما هم بصدد كتابة بقية بنود هذا الصلح، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرٍو يرسف[٣] في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين.

---

(١) الكليات، ص(١٥٢٢).

(٢) الكليات، ص(١٥٢٤).

(٣) **يرسف**: الرسف هو المشي في القيد رويدًا.

فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إليَّ. فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقضِ الكتاب بعد**» فقال سهيل: إذًا لا أصالحك على شيءٍ أبدًا، فقال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**» قال: ما أنا بمجيزه لك. قال النبي ﷺ: «**بلى فافعل**» قال: ما أنا بفاعل. فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأُردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني وقد جئت مسلمًا؟! فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، فلا نغدر بهم**»[(١)].

وكذلك هرب أبو بصير، وهو رجل من ثقيف حليفٌ لقريش، فذهب إلى النبي ﷺ، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فردّه النبي ﷺ بموجب صلح الحديبية، وفي هذا دليلٌ على كمال وفاء النبي ﷺ واحترامه للعهود والمواثيق، حتى ولو كان في ظاهر هذا العهد إجحاف بحق المسلمين.

ومن الأدلة على وفاء النبيّ ﷺ للكفار بالعهد ما رواه البراء أن النبيَّ ﷺ لـمَّا أراد أن يعتمر أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه ألا يقيم بها إلا ثلاث ليالٍ، ولا يدخلها إلا بجُلُبَّانِ السلاح[(٢)]، ولا يدعو منهم أحدًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) **جلبان السلاح**: القراب بما فيه من السيف والقوس.

قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.. فلما دخل النبي ﷺ ومضت الأيام أتوا عليًّا فقالوا: مر صاحبك فليرحل، فذكر ذلك عليٌّ لرسول الله ﷺ فقال: «**نعم**» فارتحل[١].

وهذا يدل على أن النبي ﷺ وفَّى لهم بما عاهدهم عليه، ولم يزد على الثلاث.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيلٍ، قال: فأخذنا كفار قريش. قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»[٢].

وهذا من أعظم صور الوفاء، لأن هذا العهد والاتفاق لم يكن مع النبي ﷺ، ومع ذلك أمضاه رسول الله ﷺ، لأنه سيد الأوفياء، وما كان له أن يرضى بأن يخالف هؤلاء عهدًا قطعوه مع المشركين، حتى لا ينسب أحدٌ من أصحابه إلى الخيانة ونقض العهد.

وفاؤه ﷺ لأصحابه:

أما وفاؤه ﷺ لأصحابه فهو الأكمل على الإطلاق، وبخاصة للسابقين الأولين من المؤمنين، فلم ينس رسول الله ﷺ لهم سوابقهم في الإسلام، بل كان يذكر لهم ذلك وفاءً لهم واعترافًا بفضلهم، ومن صور ذلك وفاؤه

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٣)، ومسلم (١٧٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٧).

للصديق أبي بكرٍ رضي الله عنه، فهو أول من آمن من الرجال، وهو من بذل نفسه وماله في سبيل الله، وهو صاحبه في الهجرة، وهو أحب الخلق إليه، فقد سئل رسول الله ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**». قيل له: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»(١).

وقال ﷺ: «**إن من أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكرٍ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكنْ أخوةُ الإسلام ومودتُه**»(٢).

أليس هذا من الوفاء لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه؟ فرسول الله ﷺ له المنة على كلّ أحدٍ من المؤمنين بمن فيهم الصديق رضي الله عنه، ومع ذلك يقول ما قال اعترافًا بفضله ووفاءً بعهده.

ومن صور وفاء النبي ﷺ لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**»، فسلّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثًا**»، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكرٍ فسأل: أثَمَّ أبو بكرٍ، فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلَّم، فجعل وجه النبيّ ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكرٍ، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إن الله**

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي» مرتين، فما أوذي بعدها»[١].

وكان ﷺ وفيًّا للسابقين الأولين الذين شهدوا بدرًا فإنه لـمَّا كاتب حاطبُ بنُ أبي بلتعة بعضَ المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، لم يعجل عليه رسول الله ﷺ بالعقوبة، ولم يتهمه بالخيانة والردة، وإنما جاء به وسأله «**ما هذا يا حاطب؟**» قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصَقًا في قريشٍ، ولم أكن من أنفُسِها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد صدقكم**».

قال عمر: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق قال ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٢].

ومن صور وفاء النبي ﷺ لأصحابه وفاؤه للأنصار الذين آووه ونصروه وآووا أصحابه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرته ونصرة دينه، ولذلك وفّى لهم رسول الله ﷺ، وجعل حبهم من دلائل الإيمان وبغضهم من دلائل النفاق فقال: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٤)، ومسلم (٧٤).

ومن صور وفاء رسول الله ﷺ للأنصار ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ألا أعلمكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار، ثم ذكر فتح مكة فقال: أقبل رسول الله ﷺ حتى قدم مكة، فبعث الزبير على إحدى المجَنَّبَتَيْن[1]، وبعث خالدًا على المجَنَّبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر[2]، فأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبة. قال: فنظر فرآني فقال: «**أبو هريرة؟**» قلت: لبيك يا رسول الله. فقال: «**لا يأتيني إلا أنصاري**» قال: فأطافوا به، ووبَّشت[3] قريش أوباشًا لها وأتباعًا، فقالوا: نُقَدِّم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سُئلنا. فقال رسول الله ﷺ: «**ترون إلى أوباش قريشٍ وأتباعهم**» ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى، ثم قال: «**حتى توافوني بالصفا**» قال: فانطلقنا، فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحدًا إلا قتله، وما أحدٌ منهم يوجّه إلينا شيئًا. قال: فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله! أُبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. ثم قال: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته ورأفةٌ بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحدٌ يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار!**» قالوا: لبيك يا

---

(١) **الـمُجَنَّبَة**: جناح الجيش، وهما مُجَنَّبتان أي جناحان.

(٢) **الحسَّر**: من لا سلاح معه.

(٣) **وبشت**: جمعت. الأوباش: الأخلاط والسِّفلَة.

رسول الله قال: «**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته**» قالوا: قد كان ذاك. قال: «**كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم**» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم**»[(١)].

ولقد صَدَق رسول الله ﷺ الأنصار، فعلى الرغم من أن مكة قد فتحت وصارت دار إسلام، إلا أن رسول الله ﷺ وفّى للأنصار فعاش معهم ومات بأرضهم إكرامًا لهم ووفاءً بعهدهم.

وفاؤه ﷺ لأزواجه رضي الله عنهن:

كانت خديجة رضي الله عنها أول الخلق إيمانًا وإسلامًا، وكانت خير معين لرسول الله ﷺ، واستة بمالها، وثبتته في دعوته، وكانت نعم الزوجة لزوجها.

تزوجها النبي ﷺ وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، بينما كانت هي في الأربعين من العمر، وعاش معها رسول الله ﷺ فترة شبابه لم يتزوج عليها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها من العمر خمس وستون سنة، بينما كان رسول الله ﷺ في الخمسين من عمره.

واستمر وفاء النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها حتى بعد وفاتها، وبعد أن تزوج عدةً من النساء، حيث كان يذكر فضلها ومآثرها ويعدد ما كانت عليه

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

من برٍّ به وحسن عشرة، حتى أن عائشة ﵂ كانت تغار من كثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرها.

قالت عائشة ﵂: ما غرتُ على أحدٍ من نساء النبيّ ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائقِ خديجة. فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»(١). وفي لفظ يقول: «**إني رزقت حُبَّها**»(٢).

وما أعظم هذا المعنى الذي أشارت إليه عبارته ﷺ في الدلالة على الوفاء والمحبة فهو ﷺ يعدّ استقرار حبِّ خديجة ﵂ في قلبه ﷺ رزقًا من الله ومنحة امتن الله تعالى بها عليه ﷺ فأي وفاء للزوجة أعظم من ذلك؟

وقد كان ﷺ يكثر من ذكر مناقبها ويكرم صدائقها وفاءً لها، ومن ذلك ما روته عائشة ﵂ قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسول الله ﷺ: «**من أنت؟**» قالت: أنا جثامة المزنية فقال: «**بل أنت حسَّانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فلما خرجت قلتُ: يا رسول الله! تقبلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٣٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) وصححه على شرطهما وصححه الألباني.

ومن وفاء النبي ﷺ لأزواجه اهتمامه بهن حتى بعد موته، وحثه على العناية بهن والصبر عليهن، فعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**إن أمركن لمما يهمني بعدي، ولن يصبر عليكن إلا الصابرون**»(١).

ومن وفاء النبي ﷺ لأزواجه أنه لـمَّا خيرهن بين الدنيا مع مفارقته وبين الآخرة معه، بدأ بعائشة ﵂ فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ولكنها قالت لرسول الله ﷺ: وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، فرفض رسول الله ﷺ هذا الطلب وإن كان من أحبّ أزواجه إليه، وقال: «**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها؛ إن الله لم يبعثني مُعَنِّتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**»(٢).

وفاؤه ﷺ لأقاربه:

كان وفاء النبي ﷺ لأقاربه أعظم الوفاء، ولذلك كان حريصًا على هدايتهم واستنارة قلوبهم بأنوار التوحيد، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمةُ بنتَ رسول الله ﷺ سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا**»(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٤٩)، وأحمد في المسند (٦/ ٧٧) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وقصته ﷺ مع عمه أبي طالب معروفة حيث كان حريصًا على هدايته ولم يترك دعوته حتى وهو في مرض موته، ذهب إليه وأخذ يناشده أن يقول: «**لا إله إلا الله**» حتى يحاج له بها عند الله، إلا أنه مات على ملة عبد المطلب.

ويستمر وفاء النبي ﷺ لعمه أبي طالب حتى بعد وفاته، في أنه يشفع له شفاعة خاصة، يُخَفِّفُ بها من عذابه نظرًا لما كان عليه من حدبٍ عليه ونصرة له، وحماية من أذى قومه، فالنبي ﷺ يشفع له في تخفيف العذاب عنه يوم القيامة لا في إخراجه من النار، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضَحْضَاحٍ من نارٍ يبلغُ كعبيه، يغلي منه دماغه**»(١).

ومن وفاء النبي ﷺ لعمه حمزة، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بنساء عبد الأشهل يبكين هلكاهن يوم أحد، فقال رسول الله ﷺ: «**لكن حمزة لا بواكي له**» فجاء نساء الأنصار يبكين حمزة، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «**ويحهنَّ ما انقَلَبْن بعد؟ مروهن فلينقَلِبْن ولا يبكين على هالك بعد اليوم**»(٢).

وعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار حتى قدمنا حمصَ فأتينا وحشيَّ بن حرب، فحدثنا قال: أتيت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٩١)، وأحمد في المسند (٢/ ٨٤، ٩٢) وقال الألباني: حسن صحيح.

رسولَ الله ﷺ فشهدت شهادة الحق، فقال: يا وحشي اجلس، فحدثني كيف قتلت حمزة، فحدثته فقال: «**غَيِّبْ وجهَك عني فلا أراك**»[1].

قال البغوي في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية: «فلحق وحشيٌّ بالشام فكان بها إلى أن مات»[2].

فهذا من أعظم الوفاء لحمزة أن النبي ﷺ بعد أن قبل إسلام وحشي، وعرف كيف قتل حمزة رضي الله عنه، لم يستطع أن يراه بعد ذلك، فطلب منه أن يغيب وجهه عنه فلا يراه أبدًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم(١٨٠٠).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٦٤٣).

الجوهرة الحادية عشرة:

الحلم

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الحلم كما قال الراغب هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب[(١)]، وقيل: تأخير مكافأة الظالم[(٢)].

وهو «من أشرف الأخلاق وأحقِّها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد»[(٣)].

والحلم ليس ضعفًا كما يتصور بعض الناس، بل هو عين القوة، لأنه يدل على سيطرة الإنسان على نفسه ولجمها وزمها بزمام المراقبة والتقوى، ولذلك قال أبو هلال العسكري: «ولا يصح الحلم إلا ممن يقدر على العقوبة، وما يجري مجراها من التأديب بالضرب.. قال الشاعر:

لا صفحَ ذلٍّ ولكنْ صفحُ أحلامِ[(٤)]

(١) المفردات، ص(٢٥٩).

(٢) التعريفات، ص(١٢٥).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص(٢٤٥).

(٤) الفروق، ص(٢١٩).

وكان لنبينا ﷺ القدح المعَلَّى في هذا الباب والحظ الأوفر من هذا الخلق، «فإن كلَّ حليم قد عُرفت منه زلّة، وحُفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا»[1].

فها هو ﷺ يلقى أبا سفيان يوم فتح مكة، وكان قد بالغ في حربه وعداوته والتحريض عليه، فلم يزد أن قال له: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**».

وهنا أدرك أبو سفيان أنه ليس أمام شخصٍ عادي، بل أمام نبيّ يأتيه الخبر من السماء.

ولذلك قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك.

ومع ذلك لم يسلم أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**».

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؛ هذه – والله – كان في نفسي منها شيء حتى الآن!!

وهنا تدخل العباس فقال له: ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يُضرب عنقُك. فشهد بشهادة الحق وأسلم[2].

---

(١) الشفا (١/ ٨٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٢٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٥١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤٢) وقال: أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح وصححه الألباني.

وهذا نموذج ثانٍ من حلم النبي ﷺ على أصحابه يرويه لنا جبير بن مطعم أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَله من حنين، فَعَلِقَه الناس يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فَخَطِفَتْ رداءه، فوقف النبيُّ ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان لي عددُ هذه العضاه نعمًا لقسمتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**»(١).

قال صاحب التطريز: «وفيه ما كان عليه من الحلم وحسن الخلق، والصبر على جفاة الأعراب»(٢).

وعن أنسٍ ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمدُ! مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر له بعطاء(٣).

لم يكتف النبيُّ ﷺ بأنه لم يعاقبه، ولم يعاتبه، بل إنه ضحك في وجهه وأمر له بما أراد من عطاء.

وكان النبي ﷺ أحلم الناس على أصحابه، بحيث يلتمس لهم المعاذير ولا يعاجلهم بالعقوبة إذا أخطأوا كما فعل مع حاطب وقد مرّت قصته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٢) تطريز رياض الصالحين لفيصل بن عبد العزيز آل مبارك (١/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

وأما حلمه ﷺ على أزواجه فنماذجه أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب ولكن نذكر في ذلك حادثتين: الأولى رواها أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَةٍ فيها طعام، فضربت التي النبيُّ ﷺ في بيتها يدَ الخادم، فسقطت الصحفةُ، فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فَلِقَ الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غارت أمُّكم، ثم حبس الخادم حتى أُتي بصحفةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفةَ الصحيحة إلى التي كُسرت صحفتُها، وأمسك المكسورةَ في بيت التي كَسَرَت**»[1].

فهذا التصرف الذي قامت به إحدى أمهات المؤمنين لو حدث مع كثير من الناس، لكان سببًا كافيًا لمعاقبة من قامت به؛ إما بالضرب، أو السب واللعن، أو الطلاق، أو بها جميعًا، أما النبي ﷺ فلتقديره ما جبلت عليه المرأة من الغيرة اكتفى بقوله: «**غارت أمكم**» ولكن مع ذلك لم يضيع حق من كُسرت صحفتها، فأتي بصحفة سليمة من عند التي كَسَرت الصحفة، ودفعها إلى من كُسرت صحفتها، فالحلم لا يعني تضييع الحقوق ولكن – كما ذكرنا – ضبط النفس عند ما يدعو إلى الغضب والانتقام. وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

أما الحادثة الثانية فقد رواها النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: استأذن أبو بكرٍ رضي الله عنه على النبيِّ ﷺ، فسمع صوت عائشة عاليًا، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ. فجعل النبيّ ﷺ يحجزه. وخرج أبو بكرٍ مغضبًا، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «**كيف رأيتني أنقذتُك من الرجل!**» قال: فمكث أبو بكرٍ أيامًا، ثم استأذن على رسول الله ﷺ، فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سِلْمِكُما كما أدخلتماني في حربكما، فقال النبي ﷺ: «**قد فعلنا، قد فعلنا**»[1].

فانظر كيف كان حلم النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها وهي ترفع صوتها في حضرته، ومع ذلك فإنه ﷺ يحجز بينها وبين أبيها الذي أراد معاقبتها، بل ويقوم ﷺ باسترضائها قائلًا: «**كيف رأيتني أنقذتك من الرجل**». إنها أخلاق نبي تعاهده ربه بالرعاية والحفظ، فآواه حين فقد المأوى، وهداه حين ضل الناس، وأغناه حين فقد العائل المعين: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ – ٨].

وأما حلمه ﷺ بأعدائه من الكفار والمنافقين فقد بين الله تعالى تعنتهم معه ﷺ وصبره ﷺ على هذا التعنت والجفاء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٩).

ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣].

قال ابن كثير: «وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا. فقيل للرسول ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «**بل تفتحُ عليهم باب التوبة والرحمة**»[(١)].

ومن حلمه ﷺ **بأعدائه** ما ذكره ابن هشام في السيرة أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: «**أفضالة؟**» قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء كنت أذكر الله. قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «**أستغفر الله**» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبّ إليَّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلمَّ إلى الحديث. فقلت: لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلامُ
لو ما رأيت محمدًا وقبيلَه ... بالفتح يوم تُكسَّر الأصنامُ
لرأيتِ دينَ الله أضحى بَيِّنًا ... والشركَ يغشى وجهَه الإظلامُ[(٢)]

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٠).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٧).

فهذا حلمه ﷺ برجل يريد قتله؛ يسأله أولًا عما حَدَّث به نفسه، وقد أعلمه الله تعالى بما كان يُضمره في صدره من الرغبة في قتله، ومع ذلك يضحك النبيّ ﷺ في وجهه، ويضع يده الشريفة على صدره ليسكن قلبه، ويذهب ما به من بغضة لرسول الله ﷺ.

إنها أخلاق نبي يريد الخير للبشرية، ويسعى في تطهير النفوس وتخليصها من أدران الشرك والكفر والنفاق، والحقد والحسد والبغضاء.

ومن نماذج حلمه ﷺ بمخالفيه من أهل الكتاب ما رواه عبد الله بن سلام قال: لما أراد الله هداية زيد بن سَعْنة، قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمدٍ ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبقُ حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا. قال: فكنت أنطلق إليه لأخالطه، فأعرف حلمَه من جهله.

قال: فخرج يومًا من الحجرات – يريد النبيَّ ﷺ – ومعه عليّ بن أبي طالب ﷺ، فجاء رجل يسير على راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله! إن قرية بني فلان أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدًا، وقد أصابتهم سَنَةٌ وشدة وقحوط من العيش، وإني مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء، تعينهم به، فعلت. فقال زيد بن سَعْنَة: فقلت: أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقًا فبايعني، وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين دينارًا، فدفعها إلى الرجل وقال: أعجل عليهم بها وأغثهم، فلما كان قبل المحلِّ بيوم أو يومين

أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع، ومعه أبو بكر وعمر في نفرٍ من أصحابه ﷺ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جذبتُ بُرديه جبذةً شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجهٍ جهم غليظٍ فقلت: ألا تقضيني يا محمد! فوالله ما علمتُكم بني عبد المطلب لَمُطل[1]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم. قال زيد: فارتعدتْ فرائص عمر ﷺ كالفلك المستدير، ثم رمى ببصره، ثم قال: أي عدو الله! أتقول هذا لرسول الله ﷺ؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوتَه لسبقني رأسُك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تؤدة وسكون، ثم تبسم ثم قال: «**لأنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة**»[2]، ثم قال: «**اذهب يا عمر فاقضِ حقَّه، وزده عشرين صاعًا من تمرٍ مكانَ ما رُعتَه**»[3].

قال زيد بن سَعْنه: فذهب بي عمر ﷺ فقضاني حقي وزادني عشرين صاعًا من تمرٍ. فقلت: ما هذا؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتُك. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا. فمن أنت؟ قال: أنا زيد بن سَعْنَة.

قال: الحبرُ؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول ما قلت؟ قلت: يا عمر! إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتان لم أخبرهما منه؛

---

(١) **مُطل**: أي تؤخرون الحقوق.

(٢) **التباعة**: الطلب.

(٣) **رعته**: أخفته.

يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرته منه، فأشهدك يا عمر إني قد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا. وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالًا – صدقة على أمة محمد ﷺ فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم. قال زيد: أو على بعضهم.

قال: فرجع عمر وزيد بن سعنه إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فآمن به وصدقه، وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٦٥)، وابن حبان (٢٨٨).

الجوهرة الثانية عشرة:

التواضع

أمر الله نبيَّه ﷺ بالتواضع ولين الجانب والرفق بالمؤمنين فقال: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

فكان ﷺ **سيد المتواضعين،** والتواضع «هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذلّ والرحمة بعباده»[١]، وقال الصالحي: «هو هضم النفس؛ من الـمَلَكات المرضيةِ المورثةِ للمحبة من الله ومن خلقه»[٢].

وعن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال: «**وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد**»[٣].

وأعظم التواضع هو التواضع لله تبارك وتعالى، وكان النبي ﷺ متواضعًا لربّه، منكسر القلب له، عابدًا له بما أمره، منتهيًا عما نهى عنه وزجر، لا يرى لنفسه حقًّا على ربّه كما قال: «**لن يُدْخِلَ أحدًا عملُه الجَنَّـةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمة**»[٤].

---

(١) الروح لابن القيم، ص(٢٣٣).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٧/ ٤١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

ومن تواضعه ﷺ لربه أنه اختار أن يكون عبدًا رسولًا لا ملكًا رسولًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: «**إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة**» فلما نزل قال: «يا محمد! أرسلني إليك ربك قال: أفملِكًا نبيًّا يجعلك أو عبدًا رسولًا؟» فقال جبريل: «**تواضع لربك يا محمد**» قال ﷺ: «**بل عبدًا رسولًا**»[1].

ومن تواضعه ﷺ لربه أنه نهى عن الغلو في إطرائه حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى عبادته من دون الله، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[2].

وعن أنسٍ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا، ويا خيرنا وابن خيرنا. فقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستهوينَّكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله، ورسولُ الله، والله ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**»[3].

ومن تواضعه ﷺ لله عز وجل ما كان عليه من زهدٍ وتقلل من الدنيا في مطعمه ومشربه وملبسه وبيته وشأنه كله، وسوف نذكر ما ورد في ذلك عند الحديث عن زهده ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٣١)، وابن حبان (٦٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٥٣، ٢٤١).

ومن تواضعه ﷺ لربّه تبارك وتعالى أنه سنَّ للفاتحين المنتصرين سنة التواضع والشكر له بعد نعمة النصر والتمكين، فقد دخل مكة مطأطأ رأسه تواضعًا وخضوعًا لله ﷻ(١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا(٢) بشقة(٣) برد حِبَرَةٍ حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إنَّ عثنونه(٤) ليكاد يمسُّ واسطة الرحل(٥).

وروى الحاكم عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعًا(٦).

ومن تواضعه ﷺ لربه تبارك وتعالى ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: حجَّ النبيُّ ﷺ على رحل رَثّ، وقطيفة تسَاوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «**اللهم حجةً لا رياءَ فيها ولا سمعة**»(٧).

---

(١) انظر: أروع القيم الحضارية في سيرة سيد البرية، ص(٣٢).

(٢) **معتجرًا**: ملتفًا بشقة البرد على رأسه.

(٣) **الشقة**: النصف. **والحبرة**: ضرب من ثياب اليمن.

(٤) **عثنونه**: ما نبت على الذقن وتحته سفلًا.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥).

(٦) المستدرك (٣/ ٤٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٧) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠)، وصححه الألباني.

ومن تواضعه ﷺ لربه تبارك وتعالى ما رواه أبو سعيد الخدري ﭬ قال: «أقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته[1].

وكان ﷺ متواضعًا لإخوانه من الأنبياء والمرسلين، عارفًا بفضيلة كلٍّ منهم، فعن أبي هريرة ﭬ قال: استبَّ رجلان؛ رجلٌ من المسلمين ورجل من اليهود. قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين. فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعاه النبيّ ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**لا تخيروني على موسى، فإن الناس يَصْعَقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أولَ من يُفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرشِ، فلا أدري أكان فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله**»[2].

قال ابن بطال: وأراد بقوله: «**لا تخيروني على موسى**» طريق التواضع، كما قال أبوبكر الصديق: وليتكم ولست بخيركم وكذلك قوله ﷺ: «**لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[3] يدل على معنى التواضع»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩، ٨٣٦)، ومسلم (١١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩٥، ٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٧).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٣٥).

ومن هذا الباب أيضًا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم عليه السلام**»[1].

وقد ذكر العلماء في أحد أوجه تفسير هذا الحديث أنه قاله على سبيل التواضع، لأنه ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[2].

وأما تواضعه ﷺ **للخلق،** فقد بلغ في ذلك ذروة الكمال، لأن تواضعه ﷺ متولد من العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وهذا بخلاف تواضع المهانة وهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السّفل في نيل شهواتهم، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظّه منه، فهذا كله ضَعَة لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة[3].

قال ابن القيم واصفًا تواضع النبيّ ﷺ: «وكان النبي ﷺ يمرُّ على الصبيان فيسلّم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده، فتنطلق به حيث شاءت، وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، وانظر: إكمال المعلم (٧/ ١٧٠)، والمفهم (٩/ ١١).

(٣) انظر: الروح لابن القيم، ص(٢٣٤).

ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكان هيّن المؤونة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسَّامًا، متواضعًا من غير ذلّة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال: «**ألا أخبركم بمن يَحْرم على النار، أو تحرم عليه النار؛ تحرم على كل قريب هين ليّن سهل**». رواه الترمذي(١). وقال: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع(٢) لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت**» رواه البخاري(٣).

وكان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، عليه إكاف من ليف(٤).

ومن تواضعه ﷺ **للخلق** ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن امرأةً كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله! إن لي إليك حاجة، فقال ﷺ: «**يا أم فلان! انظري أي السككِ شئت، حتى أقضي لكِ الحاجة**» فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨) وصححه الألباني.

(٢) **كراع**: مُسْتَدَق الساق العاري من اللحم.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٦٨).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٩).

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

قال النووي: «في هذه الأحاديث بيان بروزه ﷺ للناس وقربِه منهم، ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم، ويرشدَ مسترشدهم، ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيُقتدى بها، وهكذا ينبغي لولاة الأمور»[١].

قال الحسن: والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجّاب ولا يُغْدَى عليه بالجفان، ولا يُراح بها عليه، ولكنه كان بارزًا، من أراد أن يلقى نبيَّ الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويُردف خلفه، ويلعق يده[٢].

ومن تواضعه ﷺ ما ذكره أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بغلام يسلخ شاة، فقال له رسول الله ﷺ: «**تنحّ حتى أريك**» فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم، فدحَسَ بها[٣] حتى توارت إلى الإبط وقال: «**يا غلام هكذا فاسلخ**». ثم مضى وصلى للناس ولم يتوضأ[٤].

وروى ابن سعد عن حمزة بن عبيد الله بن عتبة قال: كانت في رسول الله ﷺ خصال ليست في الجبارين؛ كان لا يدعوه أحمر ولا أسود إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاةً فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عُرْيًا ليس عليه شيء[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/ ٨٢).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٧٢)، ومصنف عبد الرزاق (١٠/ ٤١٨)، والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٠١).

(٣) **فدحس بها**: الدحس هو إدخال اليد بين جلد الشاة ولحمها.

(٤) أخرجه أبو داود (١٨٥)، وابن ماجه، (٣١٧٩)، وصححه الألباني.

(٥) الطبقات الكبرى (١/ ٣٧٠).

ومن تواضعه ﷺ ما كان عليه من حسن عشرة لنسائه، فقد سئلت عائشة ﵂: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – تعني خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة(١).

وعند أحمد في المسند قالت: كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه(٢).

وكان النبي ﷺ لا يحب أن يهابه الناس هيبة الملوك، فعن قيس بن أبي حازم ﵁ أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ، فقام بين يديه، فأخذته الرعدة، فقال النبي ﷺ: «**هوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكلُ القديد**»(٣).

وعن عباد بن زاهرٍ قال: سمعت عثمان يخطب فقال: «إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلّموني به، عسى ألا يكون أحدهم رآه قط»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٦٧٦).

(٢) المسند (٦/ ٢٥٦)، والأدب المفرد، رقم (٥٤١) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (٤٣٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٨٧٦).

والقديد: لحم مملح مجفف في الشمس والهواء.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٦٩).

الجوهرة الثالثة عشرة:

الشجاعة والقوة

الشجاعة كما في «التعريفات» للجرجاني: «هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن، بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار ما لم يزيدوا على ضعف المسلمين»[١].

«والفرق بين الشجاعة والجرأة أن الشجاعة من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر.. فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته، فإنها خدم له وجنود، كما أنه إذا ولى ولَّت سائر جنوده.

وأما الجرأة فهي إقدام سببُه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام، مُعرضةً عن ملاحظة العارض، فإما عليها، وإما لها»[٢].

وقد كان النبي ﷺ أشجع الناس، فقد واجه ﷺ الكفر بمفرده، وذهب إلى صناديد قريش، وأئمة الكفر بمكة في نواديهم ومتاجرهم وأسواقهم

---

(١) التعريفات، ص(١٦٥).

(٢) الروح، ص(٢٣٧).

ليعرض عليهم دعوته، وليبين لهم بطلان ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، غير هيابٍ من انتقامهم، ولا مكترث لكثرتهم وقلة أتباعه.

أخرج ابن إسحاق والبيهقي وأبو نعيم عن عروة قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته. فقال: لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر يومًا، فذكروا رسول الله ﷺ. وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه؛ سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، وصبرنا منه على أمرٍ عظيم، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه. فمضى ثم مرَّ الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف رسول الله ﷺ ثم قال: «**أتسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح**» فأخذت القومَ كلمتُه، حتى ما منهم من رجلٍ إلا وكأنما على رأسه الطير واقع، حتى أن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفأه[١] بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدًا، فما أنت بجهول»[٢].

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما

---

(١) **يرفأه**: يسكنه ويتودد إليه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢١٨)، وابن حبان (٦٥٦٧) وانظر: الخصائص الكبرى (١/ ٢٣٧)، والروض الأنف (٢/ ٤٠).

تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم؟ فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك. قال: فرأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: فقام أبوبكرٍ رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط»[1].

فها هو رسول الله ﷺ ثابت القلب، قوي البأس، صادق العزم، لم يخف من تهديدهم ووعيدهم ولم يتزلزل من سيوفهم ورماحهم، فنجاه الله تعالى من كيدهم، وحماه من بطشهم وانتقامهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤].

وكان النبي ﷺ أسبق الناس إلى مواطن الخطر، فلا ينتظر حتى تأتي إليه الأخبار، بل يذهب بنفسه لاستكشاف الأمر وطمأنة الناس وتثبيتهم.

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلًا فخرجوا نحو الصوت، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرسٍ لأبي طلحةَ عُرْيٍ في عنقه السيف وهو يقول: «**لم تُراعوا لم تراعوا**»[2].

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).

فانظر إلى شجاعة النبي ﷺ وثبات قلبه، فقد كان أول الناس ذهابًا نحو الصوت، وكان على فرسٍ عريٍ فلم ينتظر حتى يضعوا عليه السرج، ومعلوم أن الفارس الذي يركب فرسًا عريًا فيذهب ويجيء بهذه السرعة يعدُّ من أمهر الفرسان وأشجعهم، وذهب كذلك والسيف معه استعدادًا للقتال والدفاع عن المدينة، ثم إنه يعود ليطمئن الناس قائلًا: «**لم تراعوا لم تراعوا**» أي اطمئنوا فلا روع عليكم ولا فزع، وكل ذلك مما يدلُّ على كمال شجاعته ﷺ.

قال القاضي عياض: «وأما الشجاعة والنجدة، فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ الكماةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أُحصيت له فَرَّة، وحفظت عنه جولة سواه»(١).

عن البراء رضي الله عنه، أن رجلًا قال له: يا أبا عمارة! ولَّيتم يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء، وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبيُّ ﷺ يقول: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

قال: فما رئي من الناس يومئذٍ أشدُّ منه(٢).

---

(١) الشفا (١/ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

وعن العباس قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركضُ بغلته قِبَلَ الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكُفُّها إرادة ألا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس! نادِ أصحابَ السمرة**» فقال عباس وكان رجلًا صيتًا: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحابُ السمرة. قال: فوالله لكأنَّ عطفَتَهم حين سمعوا صوتي عطفةُ البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاولِ عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حَمِي الوطيس**» قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزَموا وربِّ محمد**» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلًا، وأمرهم مدبرًا»[(١)].

وفي لفظ لمسلم: هزمهم الله، وكأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يركض خلفهم على بغلته[(٢)].

ومن شجاعة النبيّ ﷺ أنه كان أقرب الناس إلى العدو في المعارك، فعن عليٍّ رضي الله عنه قال: كنا إذا احمرَّ البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥/ ٧٧).

ﷺ، فما يكون منا أحدٌ أدنى من القوم منه[١]. وقد كان النبيُّ ﷺ يفعل ذلك طلبًا للشهادة في سبيل الله، ولذلك فقد تمنى ألا يتخلف عن سرية تغزو في سبيل الله قط، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لولا أن رجالًا من المؤمنين لا تطيبُ أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتلُ في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**»[٢].

قال القاضي عياض: «ولما رآه أبيّ بن خلف يوم أحدٍ وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، وقد كان يقول للنبي ﷺ حين افتدى يوم بدر: عندي فرسٌ أعلفها كل يوم فرقًا من ذرة[٣] أقتلك عليها، فقال له النبي ﷺ: «**أنا أقتلك إن شاء الله**»[٤].

فلما رآه يوم أحد، شدَّ أبيٌّ على فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: هكذا، أي خلوا طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء[٥] عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه في عنقه طعنة، تدأْدَأ[٦] منها عن فرسه مرارًا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٥٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٧).

(٣) **فرقًا من ذرة**: الفرق مكيال يسع ستة عشر رطلًا.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٣١٠) وانظر: الشفا للقاضي عياض (١/ ٩٢).

(٥) **الشعراء**: ذباب له لدغ.

(٦) **تدأدأ**: تقلب عن فرسه فتدحرج.

وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «**أنا أقتلك؟**» والله لو بصق عليَّ لقتلني، فمات.

وأما قوة النبي ﷺ فقد كان عظيم القوة، شديد البأس.

ففي يوم الخندق وبينما المسلمون يحفرون الخندق، إذ عرضت لهم كدية شديدة، فلم يجدوا إليها سبيلًا، فجاءوا النبيَّ ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق! فقال ﷺ: «**أنا نازل**» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، قال جابر: ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم[1].

فهذا الحديث يدل على قوة النبي ﷺ، فهذه الكدية الشديدة أي الصخرة التي لم تؤثر فيها فؤوس الصحابة وعجزوا عن تفتيتها، لم يجدوا حلًّا لذلك سوى الذهاب إلى رسول الله ﷺ والشكوى إليه من هذه الكدية، ولم يتأخر رسول الله ﷺ في إجابتهم على الرغم مما يعانيه من الجوع حيث لم يأكل طعامًا منذ ثلاثة أيام كما ذكر جابر، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع، ومع ذلك نزل الخندق وأخذ المعول، وضرب هذه الكدية الشديدة فصارت كثيبًا أهيل أو أهيم. أي صارت رملًا غير متماسك.

وتظهر قوته ﷺ أيضًا في العبادة، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت:

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٠١).

يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسِّلًا، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**» فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**» ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجوده قريبًا من قيامه»[1].

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

الجوهرة الرابعة عشرة:

الزهد

الزهد في اللغة: ضدّ الرغبة، وهو ترك الميل إلى الشي.

وفي الاصطلاح: الإعراض عن متاع الدنيا ولذاتها.

وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة(١).

«وقد نهى الله نبيَّه ﷺ أن يمدَّ عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي مُتع به الكفار، لأن من أعطاه ربُّه – جلَّ وعلا – النصيب الأكبر، والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيبِ الأحقر الأخَس»(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

فعاش النبي ﷺ في الدنيا كأنه غريبٌ أو عابر سبيل، واختار طريق الزهد والتقلل من الدنيا على الغنى والتمتع بلذاتها، رغبة فيما عند الله من النعيم المقيم والدرجات العالية.

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «**إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين**

---

(١) انظر: التعريفات، ص(١٥٣)، والكليات، ص(٧٧٤).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣١٦).

ما عنده، فاختار ما عنده» فبكى أبو بكرٍ وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ هو أعلمنا به[١].

وعن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا. قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعتُ ضرعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعث شكرتك وحمدتك**»[٢].

وبلغ من زهد النبي ﷺ أنه استوى عنده إقبال الدنيا وإدبارها، فإذا أقبلت فهو الجواد الذي تفيض راحتُه بالخير، وإذا أدبرت فهو الصابر على شظف العيش وشدة الحياة، فقد روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لي مثلُ أحدٍ ذهبًا ما يسرني أن لا يمرَّ عليَّ ثلاث وعندي منه شيء، إلا شيء أُرصِدُه لدين**»[٣].

فهذا هو حقيقة الزهد أن يستوي عند الإنسان إقبال الدنيا وإدبارها، فإذا ما أقبلت كانت في يده لا في قلبه، ولذلك ينفق منها في سبيل الله ولا يخشى فقرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٥٤)، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).

ومما يدلُّ على ميل النبي ﷺ إلى الزهد والتقلل من الدنيا ما رواه أبوهريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا**»(١).

والقوت: هو ما يسدُّ الرمق.

قال القاضي عياض: «فيه ما كان عليه ﷺ من القصد في أموره، والتقلل من دنياه، والاقتصار منها على الحاجة، فدعاؤه عليه السلام أن يكون رزق آله قوتًا يقيم حالهم ويصلح أمرهم، ويكفيهم الجهد، وليس فيه فضولٌ تُخشى عليهم فتنةُ، ويُخَاف وباله»(٢).

وإذا نظرنا في واقع معيشة النبي ﷺ علمنا ما كان عليه من قلة وحاجة في غالب أحواله، مع أنه كان يعطي عطاءً يعجز عنه الملوك، بينما يحيا هو وأهل بيته حياة المساكين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعير(٣) في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فكِلْتُه ففني(٤).

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي إنْ كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أَهِلَّة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٢) إكمال المعلم (٣/ ٣١٠).

(٣) **شطر شعير**: أي شيء من شعير.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٥١)، ومسلم (٢٩٧٣).

قال عروة: يا خالة! فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح[(١)]، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ فيسقينا[(٢)].

وذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظلُّ اليوم يلتوي، ما يجد من الدَّقل[(٣)] ما يملأ به بطنه[(٤)].

وقال سهل بن سعدٍ: ما رأى رسولُ الله ﷺ النقيّ من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه. فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلًا من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه. فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار، وما بقي ثريناه[(٥)].

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، وما طعامنا إلا ورق الحبلة[(٦)]، حتى قرحت أشداقنا[(٧)].

---

(١) **منائح**: جمع منيحة وهي الشاة تمنح ليُنتفع بلبنها ثم تردُّ لصاحبها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٣) **الدقل**: رديء التمر.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٧٨).

(٥) **ثريناه**: بللناه وعجناه. والحديث أخرجه البخاري (٥٤١٣).

(٦) **ورق الحبلة**: الحبلة ثمرة السمر من فصيلة البقوليات.

(٧) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل أهله الإدام فقالوا: ما عندنا إلا الخل. فدعا به، فجعل يأكل ويقول: «**نعم الأدم الخل**»[(١)].

ولم يكن النبيُّ ﷺ يتعمد اختيار هذه الأطعمة، بل كان يأكل ما يجد من الطيبات.

قال ابن القيم: «وكذلك كان هديه ﷺ وسيرته في الطعام؛ لا يردُّ موجودًا، ولا يتكلف مفقودًا، فما قُرّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسُه فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه... وأكل الحلوى والعسل وكان يحبهما، وأكل لحم الجزور والضأن والدجاج والأرنب وطعام البحر، وأكل الشواء والرطب والتمر وشرب اللبن خالصًا ومشوبًا، والسويق والعسل بالماء... ولم يكن يردُّ طيبًا ولا يتكلفه، بل كان هديه أكل ما تيسر، فإن أعوزه صبر، حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع، ويرى الهلال والهلال ولا يوقد في بيته نار، وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض في السفرة وهي كانت مائدته...الخ»[(٢)].

وكان ﷺ يصل به الحال إلى شدة الجوع، وهو أكرم الخلق على الله سبحانه وتعالى، وما كان يأنف من ذلك أو يضجر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله! قال: «**وأنا**

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٢).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٤٢).

والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما» فقاما معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذبُ لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق. فجاء بعذق[١] فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا. وأخذ المديةَ فقال له رسولُ الله ﷺ: «**إياك والحلوب**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا وروَوْا قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[٢].

وأما فراش النبيِّ ﷺ فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان فراش رسولِ الله ﷺ من أُدْمٍ[٣] حشُوه ليف[٤].

ودخل عمر على النبي ﷺ قال: وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظًا مصبوبًا[٥]، وعند رأسه أُهُبٌ معلَّقة[٦]، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: «**ما**

---

(١) **عذق**: غصن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

(٣) **أدم**: جلد.

(٤) أخرجه الترمذي (١٧٦١) وقال: حسن صحيح.

(٥) **قرظًا مصبوبًا**: حبٌّ كالعدس يستعمل في الدبغ.

(٦) **أهب**: جمع إهاب وهو الجلد قبل أن يدبغ.

يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله: إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[(١)].

كان الصحابة يتمنون أن يوسِّع النبيُّ ﷺ على نفسه، وكان يبكيهم أن يروه على هذه الحال من الفقر وقلة ذات اليد، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصيرٍ، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاءً. فقال: «**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها**»[(٢)].

وأما ما جاء في الصحيح من حديث عمر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم[(٣)]. فهذا حقُّ أهله في النفقة، وهذا لا يتعارض مع قول أنسٍ رضي الله عنه: كان النبي ﷺ لا يدّخر شيئًا لغدٍ[(٤)]. لأن النبيَّ ﷺ وأهل بيته كانوا ينفقون هذا القوت الذي هو حق لهم في سبيل الله حتى لا يبقى شيء منه. قال ابن حجر: «ومع كونه ﷺ كان يَحبس قوتَ سنةٍ لعياله، فكان في طول السنة ربما استجرَّه منهم لمن يردُّ عليه، ويعوضهم عنه، ولذلك مات ودرعه مرهونةٌ على شعيرٍ اقترضه قوتًا لأهله»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠١)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٦٢) وصححه الألباني.

(٥) فتح الباري (٩/ ٤١٤).

وأما بيوت النبيِّ ﷺ فقد قال السهيلي: وأما بيوته عليه السلام فكانت تسعة، بعضها من جريد مطيَّن بالطين، وسقفها جريد. وقال الحسن بن أبي الحسن – البصري – كنت أدخل بيوت النبيّ ﷺ وأنا مراهق، فأنال السقف بيدي[١].

ولـمَّا جاء كتاب الوليد بن عبد الملك بهدم حُجر أزواج النبي ﷺ بكى الناس في هذا اليوم، قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذٍ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئٌ من أهل المدينة، ويقدم القادمُ من الآفاق فيرى من اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهّد الناس في التفاخر والتكاثر[٢].

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

الجوهرة الخامسة عشرة:

الحياء

الحياء هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع عن التقصير في حقِّ ذي الحق.

وهو مأخوذ من الحياة، وعلى حسب حياة القلب، يكون حياء المرء، فكلما كان القلب حيًّا كان الحياء أتم، وقلة الحياء من موت القلب والروح[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشدّ حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه»[2].

قال في «المفهم»: «والحياء انقباضٌ وحشمة يجدها الإنسان من نفسه عندما يُطَّلع منه على ما يستقبح ويذم عليه، وأصله غريزي في الفطرة... والمكتسب هو الذي جعله الشرع من الإيمان، وهو الذي يكلَّف به.

وأما الغريزي فلا يكلَّف به، إذ ليس ذلك من كسبنا، ولا في وسعنا، ولم يكلف الله نفسًا إلا وسعها، غير أن هذا الغريزي يحمل على المكتسب، ويعين عليه، لذلك قال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[3].

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٧/ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

وكان النبيُّ ﷺ جمع له كمال نوعي الحياء، فكان في الحياء الغريزي أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وفي حيائه الكسبي في ذروتها»[1].

وأعلى درجات الحياء: الحياء من الله تعالى ولا يكون إلا عن معرفة بالله تعالى كاملة، ومراقبة له حاصلة، وهي المعبر عنها بقوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2][3].

وكان النبيُّ ﷺ شديد الحياء من ربه تبارك وتعالى، وكان حياؤه منه حياء إجلالٍ وتعظيم، وهو حياء المعرفة وعلى حسب معرفة العبد بربّه يكون حياؤه منه[4]، وهو ﷺ أعظم الخلق معرفة بالله ﷻ.

وأيضًا حياء عبودية لله تبارك وتعالى. وهذا الحياء ناتج عن الخوف والرجاء والمحبة لله تبارك وتعالى وهو الذي جعل النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فلما سئل عن ذلك قال: «**أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا؟**»[5].

ومن حياء الإجلال والتعظيم ما جاء في حديث الإسراء والمعراج الطويل الذي في الصحيحين، وفيه أن الصلاة قد فرضت أولًا خمسين صلاة

---

(١) المفهم (١/ ١٤٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٦٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩).

في اليوم والليلة، فنزل النبي ﷺ إلى موسى عليه السلام فقال له: «**ما فرض ربك على أمتك؟ قال: قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك. قال: فرجعت إلى ربي فقلت يا رب! خفف على أمتي، فحطَّ عني خمسًا**».

فما زال النبي ﷺ بين موسى عليه السلام وبين ربه حتى وصلت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، فنزل النبيّ ﷺ إلى موسى فأخبره، فقال: «**ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف**» فقال رسول الله ﷺ: «**قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه**»(١).

وأما حياء النبي ﷺ من الخلق فكان أكمل حياء وأعظمه لأنه لم يكن حياء خوف ومهانة، وإنما كان حياء تعليم وتربية وتزكية للأمة وتوجيهها إلى مكارم الأخلاق، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلانٍ يقول، ولكن يقول: «**ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا**»(٢).

ومن ذلك أن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبيُّ ﷺ شيئًا فرخّص فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم، رقم(١٦٢).

(٢) أخرجه أبوداود (٤٧٨٨) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن رجلًا دخل على رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة – وكان النبيُّ ﷺ قلما يواجه رجلًا في وجهه بشيء يكرهه – فلما خرج قال: «**لو أمرتم هذا أن يغسل هذا عنه**»[١].

ومن حيائه ﷺ ما رواه ثابت عن أمِّ سلمة رضي الله عنها في حديث زواجها من رسول الله ﷺ وفيه قال ثابت: «ثم أقبل رسول الله ﷺ يأتيها، فلما رأته وضعت زينب – أصغر ولدها – في حِجْرها، فجاء رسول الله ﷺ فلما رآها انصرف – وكان حييًا كريمًا – ثم أقبل رسول الله ﷺ يأتيها، فلما رأته وضعتها في حِجْرها، فانصرف رسول الله ﷺ، ثم أقبل رسول الله ﷺ يأيتها، فوضعتها في حِجْرها، فأقبل عمارٌ مسرعًا بين يدي رسول الله ﷺ، فانتزعها من حِجْرها وقال: هاتِ هذه المقشوحة[٢] التي منعت رسول الله ﷺ حاجته، فجاء رسول الله ﷺ فلم يرها. فقال: أين زناب؟ قالت: أخذها عمار، فدخل رسول الله ﷺ على أهله[٣].

فها هو ﷺ – بأبي هو وأمي – يبلغ به الحياء أن يستحيي من طفلة في حِجْر أمها، فينصرف ثلاث مرات دون حاجته، ويستحي أيضًا من أمها فلا يطلب منها أن تترك ابنتها وتنشغل بحاجته، ثم إنه ﷺ لما جاء في المرة الرابعة ولم يجد زينب سأل عنها، اهتمامًا بشأنها وإيناسًا لأمها، فلما اطمأن أن عمارًا قد أخذها دخل على أهله.

---

(١) أخرجه أبوداود (٤١٨٤)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٤).

(٢) **المقشوحة**: الـمُبْعَدة.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٩٠٨).

وكان الحياء ملازمًا للنبيّ ﷺ حتى في رؤاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيتُني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته فوليتُ مدبرًا**».

قال أبو هريرة: فبكى عمر بن الخطاب ثم قال: أعليك – بأبي أنت وأمي يا رسول الله – أغار[1]!

وكان حياء النبي ﷺ **يزداد ممن اشتهروا بالحياء**، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن ساقيه، فاستأذن أبو بكرٍ فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكرٍ فلم تهتش له ولم تُبَاله[2]، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُبَاله، ثم دخل عثمان فجلستَ وسويتَ ثيابك. فقال ﷺ: «**ألا أسْتَحِي من رجلٍ تَسْتَحي منه الملائكة؟**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٢٣).

(٢) **لم تهتش له ولم تباله:** أي لم تكترث به ولم تغير من جلستك لأجله.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

الجوهرة السادسة عشرة:

السكينة والوقار

السكينة كما قال الجرحاني: «هي ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزلِ الغيب، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن، وهو مبادئ عين اليقين»(١).

فالسكينة تكون في القلب أولًا، ثم تثمر بعد ذلك في الجوارح تواضعًا وهدوءًا ووقارًا، وهو التأني في التوجه نحو المطالب(٢).

وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس **سكينة ووقارًا**، وكان الله ﷻ يثبته في الملمَّات، وينزل عليه السكينة كما قال في حادثة الهجرة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال في مقابلة حَمِية الجاهلية التي جُعلت في قلوب الكفار: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

فكانت الأحداث تزلزل قلوبَ أصحاب النبيّ ﷺ، بينما كان النبيُّ ﷺ ثابت القلب، هادئ البال، ساكنًا، واثقًا من نصر الله ﷻ.

وكان ﷺ وقورًا حتى في المواقف التي يجنح فيها الفضلاء إلى الغضب والشدة، فعن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجًا،

---

(١) التعريفات، ص(١٥٩).

(٢) التعريفات، ص(٣٢٧).

حتى إذا كنا بالعَرْج، نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلستُ إلى جنب أبي، وكانت زِمَالةُ[1] أبي بكرٍ وزِمَالة رسول الله ﷺ واحدة، مع غلامٍ لأبي بكرٍ، فجلس أبو بكرٍ ينتظر أن يطلُع عليه، فطلع وليس معه بعيره. قال: أين بعيرك؟ قال: أضللتُه البارحة.

فقال أبو بكرٍ: بعير واحدٌ تضلُّه؟ فطفق أبو بكرٍ يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسَّم ويقول: «**انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع**» قال ابن أبي رِزْمَةَ: فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول: «**انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع**» ويتبسَّم[2].

وكان من وقاره ﷺ أن من رآه هابه كما قال علي بن أبي طالب: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبّه، ولم أر قبله ولا بعده مثله[3].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «**هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد**»[4].

ومن أعظم المواقف التي ظهرت فيها السكينة على النبي ﷺ ما كان من حاله يوم الهجرة، وقد بلغ المشركون فم الغار ورسول الله ﷺ وأبو بكرٍ بداخله في مشهد تتزلزل له القلوب، وتضطرب لهوله النفوس، قال أنس:

---

(١) **الزمالة**: المركوب.

(٢) أخرجه أبوداود (١٨٢٠)، وأحمد في المسند (٦/ ٣٤٤). وحسنه الألباني.

(٣) أخلاق النبي وآدابه (١/ ٢٨٣)، وأنساب الأشراف (١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه، رقم(٣٣١٢) وفي الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

حدثني أبو بكرٍ ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[1].

وكذلك من المواقف التي ظهرت فيها سكينة النبيّ ﷺ موقفه يوم الحديبية حيث عقد النبي ﷺ مع المشركين صلحًا وقال: «**لا يسألوني خُطّةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

وأثناء كتابة بنود هذا الصلح، رفض المشركون أن يكتبوا: «بسم الله الرحمن الرحيم» حيث قال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**» ورفضوا كذلك أن يُكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ﷺ ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله**».

وكان من بنود هذا الصلح أن ينصرف المسلمون عن مكة ولا يمكنوا من الطواف بالبيت إلا من العام المقبل.

وأن يردّ من جاء مسلمًا إلى المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ثم كان من أمر أبي جندل بن سهيل ما كان، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عارض ذلك وقال للنبي ﷺ: ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «**بلى**» قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**» قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا. فقال رسول الله ﷺ: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**» قال عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قال عمر: لا. قال ﷺ: «**فإنك آتيه ومطوّف به**».

ويضيق المسلمون جدًّا بهذا الصلح والنبي ﷺ ثابت ساكن مطمئن بنصر الله، يرجو من هذا الصلح نصرًا عزيزًا وفوائد كثيرة للإسلام والمسلمين، إلا أن المسلمين لم يكونوا على مثل فهم النبي ﷺ وتخطيطه، فأصابهم الهمّ والغمّ، حتى أن النبي ﷺ لـمَّا فرغ من قضية الكتاب قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**» فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد[1].

فتلقى النبي ﷺ ذلك بهدوء وسكينة، ولم يعنفهم لأنه يدرك صدقهم وإخلاصهم.

وهذه السكينة التي كانت في قلب النبي ﷺ فاضت على جوارحه عبادة لله عز وجل وذكرًا له ومداومة على ذلك واستغراقًا للوقت في ذلك.

وهذه لوحة يرسمها لنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه تبين سكينته ﷺ في الصلاة وتلذذه بهذه العبادة العظيمة، يقول رضي الله عنه: «صليت مع النبيِّ ﷺ ذات

---

(١) حديث صلح الحديبية أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

ليلة، فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا؛ إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبًا من قيامه»[1].

وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت أن أجلس وأدعه[2].

وفي حجة الوداع كان النبي ﷺ يقول للناس: «**أيها الناس! السكينةَ السكينةَ**»[3].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبيُّ ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: «**أيها الناس! عليكم بالسكينة، فإن البرَّ ليس بالإيضاع**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٦٧١)، **والإيضاع**: الإسراع.

الجوهرة السابعة عشرة:

الثقة بالله تعالى

الثقة بالله تعالى هي روح التوكل ولبُّه، وهي تقتضي الرضى بأحكام الله وأقضيته، إذ لا مردَّ لقضائه ولا معقب لحكمه «فمن حكم الله له بحكم، وقسم له بنصيب من الرزق، أو الطاعة، أو الحال، أو العلم أو غيره، فلابد من حصوله له، ومن لم يقسم له ذلك فلا سبيل إليه ألبتة»[١].

فأهل الثقة بالله ﷻ هم أكثر الناس رضًا وتوكلًا على الله، وهم أكثر الناس اطمئنانًا وسعادة في الدنيا، لأنهم يضعون نصب أعينهم قوله ﷺ: «... **ولو أنفقت مثل أحدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النار**»[٢].

لقد كان نبينا ﷺ أعظم الناس ثقة بربه، ففي أشدّ المواقف كان ثابت الجنان، قوي الإرادة، شديد التمسك بالحق، لا يخشى الباطل، ولا تؤثر فيه صولته، ولا يتزلزل قلبه من كثرة المخالفين وقلة المؤمنين.

فقد كان ﷺ يذهب إلى الناس في أنديتهم وأسواقهم يدعوهم إلى الله، ويبين لهم ضلال عبادة الأصنام، حتى ضجت قريش لما رأت أتباع النبي ﷺ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٨، ١١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وأحمد في المسند (٥/ ١٨٢) وصححه الألباني.

يكثرون، فجاءوا إلى أبي طالب فقالوا: أرأيت أحمد؟ يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا، فانهه عن أذانا. فقال أبو طالب: يا عقيل! ائتني بمحمدٍ ﷺ. قال: فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي! إن بني عمِّك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم، فانتهِ عن ذلك.

قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره - وفي رواية - فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره- إلى السماء فقال: «**ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تشعلوا لي منها شعلة - يعني الشمس**»[(١)].

وفي حديث بإسناد ضعيف أنه قال: «**يا عمّ! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**»[(٢)].

إن الثقة بالله تعالى تتجلى في هذه الحادثة، فالنبيّ ﷺ كان وحيدًا إلا من الله تعالى، يحمل راية التوحيد ومشعل الهداية، وكان يذهب إلى المشركين في أماكن اجتماعهم فيدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويبين لهم أن ما هم عليه شرك وضلال، ولم يخش ﷺ قريشًا وسطوتها، وقد نهوه مرارًا عن ذلك فلم ينته، فذهبوا إلى عمه أبي طالب الذي تربى النبي ﷺ في بيته، ومع ذلك لم يجبه النبي ﷺ إلى طلبه ثقة بالله ﷻ وإيمانًا بالرسالة التي اختير لبلاغها.

(١) أخرجه ابن عساكر وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم(٩٢).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٣٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٧)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٩٩).

وفي طريق الهجرة والنبيّ ﷺ مطارد من قبل أعداء الله، وقد جعلوا في رسول الله ﷺ وفي أبي بكرٍ دية كلٍّ منهما لمن قتله أو أسره، فتطاولت عنق سراقة بن مالك لذلك، وهو أعرابيّ من بني مدلج.

قال أبو بكرٍ: فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرسٍ له. فقلت: يا رسول الله! هذا الطلب قد لحقنا. قال: «**لا تحزن إن الله معنا**».. إنها الثقة بالله تعالى، تتجلى في هذا الموقف العصيب، فالنبيّ ﷺ لا يعلم هل الذي أدركه من الطلب واحد أم أكثر، ومع ذلك يقول: «**لا تحزن إن الله معنا**».

قال أبو بكر: حتى إذا دنا منا قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة قلت: يا رسول الله! هذا الطلب قد لحقنا وبكيت. قال: «**لم تبكي**» قلت: والله ما أبكي على نفسي، ولكني أبكي عليك. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه فقال: «**اللهم اكفناه بما شئت**» فساخت فرسه إلى بطنها في أرضٍ صلدٍ، ووثب عنها وقال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأُعَمينَّ على من ورائي من الطلب، فدعا له رسول الله ﷺ فأُطلق ورجع إلى أصحابه[1].

وروي أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: كيف بك إذا لبست سِوَارَيْ كسرى ومنطقتَه وتاجَه[2]!!

---

(١) انظر: أسد الغابة (١/ ٤٢٢).

(٢) السابق (١/ ٤٢٢).

يقول ذلك رسول الله ﷺ وهو مطارد مستضعف من قبل أعداء الله ﷻ الذين ألجئوه للرحيل من بلده مكة إلى ديار لم يعهدها وقوم لم يألفهم، ولكنها الثقة بالله ﷻ.

وبعد فتوحات فارس، أُتي عمر بن الخطاب ﵁ بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، ودعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلًا كثير شعر الساعدين، فقال له عمر: ارفع يديك، ثم قال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا ربُّ الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيًّا من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته[(١)].

ويستمر المسير برسول الله ﷺ في هجرته الميمونة، ويستمر الطلب في تعقبه، فوصل رسول الله ﷺ إلى جبل ثور وفيه الغار المشهور، فاختبأ رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار وقد جدّت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب وانتشروا في الجبال والوديان والوهاد والهضاب، وتعقب القصاص الأثر حتى وصلوا إلى باب الغار ولكن الله غالب على أمره[(٢)].

روى البخاري عن أنس عن أبي بكرٍ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبيَّ الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، فقال رسول الله ﷺ: «**اسكت يا أبابكر؛ اثنان الله ثالثهما**»[(٣)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية للصلابي (١/ ٤١٩).

(٢) انظر: الرحيق المختوم، ص(١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٢٢).

وفي لفظ: «**ما ظنك يا أبابكر باثنين الله ثالثهما**»[(١)].

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

إن الثقة بالله ﷻ هي التي جعلت رسول الله ﷺ يبرم عقد الحديبية على كراهة من أصحابه، فلما قال له عمر: لم نعطي الدنية في ديننا. أجابه ﷺ: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**»[(٢)].

إن الثقة بالله ﷻ هي التي جعلت رسول الله ﷺ يعتصم بالله ويأوي إلى ركنه في مواجهة الأخطار ومجابهة الشدائد، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٣)] [آل عمران: ١٧٣].

إن الثقة بالله ﷻ هي التي جعلت رسول الله ﷺ ينام دون حراسةٍ غير عابئٍ بشيء، لأن الله ﷻ قد تولى حفظه وكفايته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رجلًا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا في يده**[١]**، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. قال: فشام السيف**[٢]**، فها هو ذا جالس**» ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ[٣].

ومن ثقة النبي ﷺ بربه تعالى:

ثقته بوعده، وبصدق ما جاء به الوحي، فعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها**»[٤].

ولما شكا خباب إلى رسول الله ﷺ شدة ما يلقونه من المشركين، تغير وجه النبي ﷺ وقال: «**لقد كان مَنْ قبلكم ليمشَّط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مِفْرقِ**

---

(١) **صلتًا في يده**: أي مجردًا من غمده مشهرًا إياه في وجه رسول الله ﷺ.

(٢) **فشام السيف**: غمده في جرابه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

رأسه، فيُشَقُّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه»[1].

ومن ثقة النبي ﷺ بربه ثقته بصدق كلامه وأنه الحق الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

فعن أبي سعيد أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه. فقال ﷺ: «**اسقه عسلًا**» ثم أتى الثانية فقال: «**اسقه عسلًا**» ثم أتاه فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا**»، فسقاه فبرأ[2].

فقوله ﷺ: «**صدق الله**» يتأول قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[3] [النحل: ٦٩] وهذا من الثقة بكلام الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٤، ٥٧١٦)، ومسلم (٢٢١٧).

(٣) انظر: المفهم (١٨/ ٨٧).

الجوهرة الثامنة عشرة:

التفاؤل

التفاؤل هو توقع الخير، كما أن التشاؤم هو توقع الشر، فهو شعور نفساني ناتج عن بناء علاقات بين الأشياء تكون نتائجها مبهجة.

وقد تكون هذه العلاقات بين الأشياء صحيحة وبالتالي تكون النتائج كما توقعها صاحبها، وقد لا تكون صحيحة فلا تأتي النتائج كما توقع.

والتفاؤل هو الزاد النفسي الذي يدفع الإنسان إلى العمل وإلى مزيد من البذل والعطاء أملًا في حصول الثمرة التي يرجوها.

والنبيُّ ﷺ كان يحبُّ التفاؤل ويقول: «**لا عدوى ولا طيرة، وأحبُّ الفأل الصالح**»[١].

وفي لفظ: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**»[٢].

والتفاؤل لا يعني ترك الأسباب انتظارًا لما يأتي به الغيب من مسرات، ولكنه تفاؤل مقرون بالعمل والأخذ بالأسباب، وقد كان النبيُّ ﷺ يحب الفأل ومع ذلك كان يأخذ بأسباب السلامة في الحروب، فكان يلبس لامته[٣]

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٣) **لامته**: أداة الحرب من رمح ومغفر وسيف ودرع.

ودرعه، وظاهر[1] يوم أحدٍ بين درعين، واختفى في الغار ثلاثًا وكان في ذلك متوكلًا في السبب لا على السبب كما هو عليه كثير من الناس.

ونهى ﷺ عن التشاؤم والتطير وبخاصة إذا صدَّ الناسَ عن أعمالهم ومصالحهم، ففي صحيح مسلم أن معاوية بن الحكم السلمي قال للنبي ﷺ: «إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالًا يأتون الكهان. قال: «**فلا تأتهم**» قال: ومنا رجال يتطيرون. قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم**»[2].

وقال ﷺ: «**الطيرةُ شرك.. ثلاثًا**»[3].

وكان ﷺ يتفاءل بالأسماء الحسنة، ويُرى ذلك في وجهه، فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ لا يتطير من شيء، ولكنه إذا أراد أن يأتي أرضًا سأل عن اسمها، فإن كان حسنًا رؤي ذلك في وجهه. وكان إذا بعث رجلًا سأل عن اسمه، فإن كان حسن الاسم، رؤي البشاشة في وجهه، وإن كان قبيحًا رؤي ذلك في وجهه[4].

---

(١) **ظاهر بين درعين**: أي لبس إحداهما فوق الأخرى.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٣) أخرجه أبوداود (٣٩١٢)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبوداود (٣٩٢٢)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٣٧).

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: «**يا راشد، يا نجيح**»(١).

ولما جاء سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ في الحديبية قال النبي ﷺ: «**سهل لكم من أمركم**»(٢).

وكان ﷺ يتفاءل بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب النصر وظهور الإسلام، وانكسار الكفر وأهله، كما تفاءل برؤية المساحي والفؤوس والمقاتل مع الكفار، فتفاءل بخرابها(٣).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلًا، فلما أصبح ولم يسمع أذانًا، ركب وركبت خلفَ أبي طلحة، وإن قدمي لتمسُّ قدم النبيِّ ﷺ. قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبيَّ ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس. فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «**الله أكبر الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين**»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦١٦) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥).

وكان ﷺ يتفاءل عند نزول البلاء وأوقات الشدائد بالفرج واليسر، ومن ذلك أنه لما خرج ﷺ إلى المصلى ليستسقي وأراد أن يدعو استقبل القبلة وحوّل رداءه فأسقوا قال النووي: «والتحويلُ شرع تفاؤلًا بتغير الحال من القحط إلى نزول الغيث والخصب، ومن ضيق الحال إلى سعته»(١).

وكان ﷺ يتفاءل بالرؤى الصالحة ويؤولها ويبشر بها ويقصُّها على أصحابه، ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت في المنام كأن في يدي سَرَقة(٢) من حرير، لا أهوي بها إلى مكانٍ في الجنة إلا طارت بي إليه، فقصصتها على حفصة، فقصَّتها حفصةُ على النبي ﷺ فقال: «**إن أخاك رجلٌ صالح**»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولتُ الرفعةَ لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب**»(٤).

وليس في محبته ﷺ الفأل ما يدلُّ على تطيره، فإنه ﷺ أبطل الطيرة، كما سبق أن بينا، ومحالٌ أن يأتي رسول الله ﷺ شيئًا أبطله ونهى عنه. قال ابن القيم رحمه الله: «وأما ما ذكرتم من أن النبيّ ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن، فلا ريب في ثبوت ذلك عنه، وقد قرن ذلك بإبطال الطيرة، كما في الصحيحين

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ١٨٨).

(٢) **سَرَقَة**: قطعة من جيد الحرير.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦١٣)، ومسلم (٢٤٧٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٠).

من حديث الزهري عن عبيد بن عبيد الله، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا طيرة وخيرها الفأل قالوا: وما الفأل يا رسول الله! قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[1] فابتدأهم النبيُّ ﷺ بإزالة الشبهة وإبطال الطيرة، لئلا يتوهموها عليه في إعجابه بالفأل الصالح. وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يلائمها ويوافقها مما ينفعها»[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

الجوهرة التاسعة عشرة:

حسن العشرة الزوجية

إن من دلائل كمال الرجل ونبله حسنَ عشرته لزوجته وتلطفه معها وتجاوزه عن أخطائها وزلاتها، وتقديره لمشاعرها وأحوالها النفسية.

وقد بلغ النبيُّ ﷺ الغاية في ذلك، حيث استطاع إدارة تسعة أبيات في وقت واحدٍ إدارة حكيمة تعتمد على المودة والرحمة والرفق وتحمل المسؤولية.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] أي طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئتاكم بحسب قدرتكم، كما تحبُّ ذلك منها فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أمَّ المؤمنين، يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقتُه، وذلك قبل أن أحملَ اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني وقال: «**هذه بتلك**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود (٢٥٨٠) وصححه الألباني.

ويجتمع نساؤه كلَّ ليلةٍ في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاءَ في بعض الأحيان، ثم تنصرف كلٌّ واحدة إلى منزلها.

وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعارٍ[١] واحد، يضع على كتفيه الرداء، وينام بالإزار.

وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢] [الأحزاب: ٢١].

وسئلت عائشة ﵂ ما كان النبيُّ ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة[٣].

ومن أعظم الأسس التي بني عليها نظام البيت النبوي هو أساس العدل، فقد بنى النبي ﷺ لكل واحدة من أزواجه بيتًا مستقلًّا، هو أشبه ما يكون بحجرة تطل على فناء صغير، وكان ﷺ يبيت عند كلّ واحدة منهن ليلة، وينفق عليهن ما في يده بالسوية.

وكان إذا سافر أقرع بينهن، وسافر بالتي تخرج لها القرعة.

ولـمَّا حج ﷺ حجة الوداع أخذ معه نساءه كلَّهن، مع ما في ذلك من المشقة، ليتحقق العدل في صحبته في حجته الوحيدة.

---

(١) **شعار**: الشعار: ما ولي جسد الإنسان من الثياب دون ما سواه.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٦، ٦٠٣٩).

كان ﷺ يعلم أن ميلَ القلب لا يمكن السيطرة عليه، وأن المرء قد يميل قلبه إلى إحدى زوجاته ميلًا زائدًا، على الرغم من تحرّيه العدل في شأنه كله، ولذلك كان ﷺ يقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[1]. يعني بذلك ميل القلب.

ولذلك كان ﷺ يحبُّ عائشة أكثر من سائر أزواجه، ولـمّا سئل: من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «**عائشة**» قيل له: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»[2]. فهذا مما لا يلام به المرء لأنه يتعلق بميل القلب ومشاعره.

كان ﷺ يتعامل مع أزواجه بالمودة والرحمة، واللطف والحنان، بينما تشتكي كثير من الزوجات جفاف المشاعر بينها وبين زوجها، وعلى هؤلاء أن ينظروا في سيرة النبي ﷺ مع أزواجه، وتحببه إليهن ورقّته معهن، ومداعبته لهن، وصبره عليهن.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضبي**». قلت: ومن أين تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد ﷺ، وإذا كنت غضبي قلت: لا وربِّ إبراهيم**» قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجُر إلا اسمك[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٦)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

ومن الأمثلة كذلك على حسن عشرة النبي ﷺ لأزواجه ورقته في التعامل معهن، أنه ﷺ دخل يومًا على صفية وهي تبكي. فقال لها: «**ما يبكيك؟**» قالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي!

فقال لها النبي ﷺ: «**إنك لابنةُ نبيّ، وإن عَمَّك لنبي، وإنك لتحت نبيّ، ففيم تفخر عليك**». ثم قال ﷺ: «**اتقي الله يا حفصة**»[1].

بهذه الكلمات الرقيقة طيب النبي ﷺ خاطر صفية ﵂ ورفع شأنها، لأنها آمنت بالله ورسوله ﷺ، وهي تنتمي إلى نبيين عظيمين من أنبياء بني إسرائيل هما موسى وهارون عليهما السلام، فلا ينبغي احتقارها لأصلها اليهودي.

وكانت عائشة ﵂ تفخر على النساء بحسن عشرة النبيّ ﷺ لها، فكانت تقول: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبيّ ﷺ، فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب، وأتعَرَّقُ العَرْق[2] وأنا حائض، ثم أناوله النبيَّ ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ»[3].

كان النبيُّ ﷺ حريصًا على إدخال البهجة والسرور إلى جنبات البيت النبوي، وكان يعمل على إسعاد أزواجه وإعطائهن حقهن في الفرح واللهو المباح، فعن عائشة ﵂ قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون، فقال لي النبيّ ﷺ: «**يا حميرا[4] أتحبين أن تنظري إليهم؟**» فقلت: نعم. فقام بالباب، وجئته،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٤)، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) **أتعرق العرق**: العرق هو العظم الذي عليه بقية من لحم، والتعرق هو أخذ هذا اللحم بالأسنان.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠).

(٤) حميراء: تصغير حمراء.

فوضعت ذقني على عاتقه، فأسندت وجهي إلى خدّه. قالت: ومن قولهم يومئذٍ: أبا القاسم طيبًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**حسبكِ**». فقلت: يا رسول الله لا تعجل. فقام لي. ثم قال: «**حسبك**». فقلت: لا تعجل يا رسول الله. قالت: وما لي حبُّ النظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغ النساءَ مقامُه لي، ومكاني منه[1].

ومن جميل عشرة النبي ﷺ ما روته عائشة رضي الله عنها أن جارًا لرسول الله ﷺ فارسيًّا كان طيب المرق، فصنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه. فقال ﷺ: «**وهذه**» لعائشة. فقال الرجل: لا. فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه؟**» قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه؟**». فقال الرجل: نعم في الثالثة. فقاما يتدافعان[2] حتى أتيا منزلة[3].

قال النووي في شرح مسلم: «كان النبيُّ ﷺ مخيرًا بين إجابته وتركها، فاختار أحدَ الجائزين وهو تركها إلا أن يأذن لعائشة معه، لما كان بها من الجوع ونحوه، فكره ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة وحقوق المصاحبة وآداب المجالسة المؤكدة، فلما أذن لها، اختار

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٩٥١) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح.

(٢) **يتدافعان**: يمشي كل واحدٍ منهما في إثر صاحبه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٧).

النبي ﷺ الجائز الآخر لتجدد المصلحة وهو حصول ما كان يريده من إكرام جليسه وإيفاء حقِّ معاشرته ومواساته فيما يحصل»[١].

ومن حسن عشرة النبي ﷺ لأزواجه أنه كان يعلمهن أحكام الشريعة وحدودها والأفضل من العبادة، وكان ينهاهن عن الغلو والتشدد في الدين، فقد دخل بيته يومًا، فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبل لزينب – بنت جحش – فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «**لا، حلّوه، ليصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد**»[٢].

وكان ﷺ إذا وجد شيئًا منكرًا في بيته غيره بيده وبين حكم الله في ذلك، فقد دخل ﷺ على عائشة في بيتها وفي البيت قرامٌ[٣] فيه صور، فتلوَّن وجهه ﷺ، ثم تناول الستر فهتكه ثم قال: «**من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**»[٤].

وكان ﷺ يعلم أزواجه جوامع الأذكار وأفضل صور العبادة، فعن جويرية رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «ما زلتِ على الحالِ التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد قلت بعدك**

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٣/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٣) **قرام**: نوع من الستائر.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠٩).

أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[(١)].

ومن حسن عشرة النبي ﷺ: الشفقة على أزواجه فلا يوقظهن من نومهن لأدنى سبب، ولا يتركهن ليلًا لئلا يستوحِشْن، ولكنه ﷺ في الوقت نفسِه كان حازمًا يستطيع تأديب من يخطئ من أزواجه.

فعن عائشة رضي الله عنها **قالت**: ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ: لـمَّا كانت ليلتي التي كان فيها النبيّ ﷺ عندي انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعها عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظنَّ أن قد رقدتُ، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه[(٢)] رويدًا.

قالت: فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنَّعتُ إزاري، ثم انطلقتُ على إثره، حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر[(٣)] فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: «**مالكِ يا عائشُ حشيا رابية**»[(٤)] قلت: لا شيء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٦).

(٢) **أجافه**: أغلقه.

(٣) **فأحضر**: عدا عدوا.

(٤) **حشيا رابية**: أي وقع عليك الحشا وهو الربو والنهيج وذلك بسبب تواتر نفسها.

قال: «**لتخبريني، أو ليخبرني اللطيف الخبير**».

قلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، فأخبرته.

قال: «**فأنتِ السواد الذي رأيت أمامي؟**».

قلت: نعم. فلهدني[١] في صدري لهدةً أوجعتني.

ثم قال: «**أظننتِ أن يحيفَ[٢] اللهُ عليك ورسوله؟**».

قلت: مهما يكتم الناسُ يعلمه الله؟

قال: «**نعم**».

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبتُه فأخفيته منكِ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعتِ ثيابك، وظننتُ أن قد رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظكِ وخشيت أن تستوحشي.

فقال: «**إن ربَّك يأمرك أن تأتي أهلَ البقيع فتستغفر لهم**».

قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟

قال: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لَلاحقون**»[٣].

---

(١) لهدني: دفع بيده في صدري.

(٢) يحيف: يظلم.

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٤).

وكان من حسن عشرة النبي ﷺ لأزواجه الاهتمام براحة أهله في السفر والغيرة عليهن وعدم إحواجهن إلى غيره، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ لـمَّا بنى بصفية صنع حيسًا[1] في نِطع[2] صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: «**آذن من حولك**»، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية.

قال أنس: ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوِّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[3].

قال العيني: قوله: «يُحَوِّي لها» أي يجعل لها حويَّةً وهي كساء محشو يدار حول سنام الراحلة، يحفظ راكبها من السقوط ويستريح»[4].

فانظر إلى مروءة النبي ﷺ مع صفية حين يجلس على الأرض ويجعل من ركبته الشريفة موطئًا، بحيث تضع صفية رجلها عليها حتى تستطيع ركوب الدابة، وكان يمكنه ﷺ أن يجعل شيئًا آخر بدلًا من ركبته الشريفة، إلا أن فعله ذلك بنفسه يضرب أروع الأمثلة في الرجولة والتواضع وحفظ الزوجة والغيرة عليها، وهي مواقف لا يمكن لامرأة أن تتناساها.

---

(١) **حيسًا**: طعام من تمر وأقط وسمن، تخلط وتعجن وتسوّى كالثريد.

(٢) **نطع**: بساط من جلد.

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٣٥).

(٤) عمدة القاري (٣٠/ ٣٨٥).

الجوهرة العشرون:

التوازن والاعتدال

إن من أهم ما يميز شخصية النبي ﷺ هو ذلك التوازن والاعتدال الذي يضبط كافة أقواله وأفعاله وتصرفاته وأخلاقه، بحيث لا يطغى جانب على حساب جانب آخر، ولا يؤدي كمال خُلُق إلى نقصٍ في خلقٍ آخر، فكما كان ﷺ قدوة في عفوه وصفحه وحلمه وتسامحه، كان قدوة أيضًا في عقوبته وتأديبه وجهاده أعداء الله.

وكما كان ﷺ قدوة في عبادته وذكره وتألهه وبكائه من خشية الله كان قدوة في نومه وراحته وضحكه ومزاحه ومعاشرته أزواجه.

وكما كان ﷺ قدوة في زهده وتقلُّله من الدنيا، كان قدوة في نظافته وهِنْدامه وطيب رائحته، وأكله من أطيب الأطعمة إن وجدت.

وهذا التوازن والاعتدال هو الذي جعل بعض الناس يَتَقَالُّ عبادةَ النبي ﷺ ظنًّا منهم أن الغلوَّ في العبادة مما يقربُ إلى الله تعالى، فقد جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبيِّ ﷺ، يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبيِّ ﷺ، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!

فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليلَ أبدًا.

وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج النساء أبدًا.

فأخبر النبيُّ ﷺ بما قالوا، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)].

وبيَّن أنس ﷺ شيئًا من توازن النبيّ ﷺ في العبادة فقال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًّا إلا رأيتَه، ولا نائمًا إلا رأيتَه[(٢)].

وعن الأسود قال: سألت عائشة ﵂ كيف صلاةُ النبيِّ ﷺ بالليل؟ قالت: كان ينام أوله، ويقوم آخره فيصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كان به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج[(٣)].

وهذا يبين التوازن بين العبادة وحاجة البدن إلى الراحة، وحق الزوجة في الفراش.

وعن ابن عباسٍ ﵄ قال: ما صام النبيُّ ﷺ شهرًا كاملًا قط غير رمضان، ويصوم حتى يقول القائل: لا والله لا يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا والله لا يصوم[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤١).

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٧١)، ومسلم (١١٥٧).

وبين النبي ﷺ أن من لزم طريق التوازن والاعتدال بلغ مقصوده ولم ينقطع فقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيءٌ من الدُّلجَة، والقصدَ القصدَ تبلغوا**»(١).

وكان النبي ﷺ يحبُّ الاعتدال في الدعاء، فكان يدعو بالأدعية المختصرة الجامعة وينهى عن الاعتداء في الدعاء، فعن أبي نعامة أن عبد الله بن مُغَفَّل سمع ابنًا له يقول: اللهم إني أسألك القصرَ الأبيض من الجنة إذا دخلتُها عن يميني. قال: فقال له: يا بني! سل اللهَ الجنةَ وتعوّذه من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطَّهور**»(٢).

ومن معالم التوازن النبوي أنه كان سهل الخلق، كريم الشمائل يميل إلى التيسير في معاملة أزواجه حتى قال جابر رضي الله عنه: وكان رسول الله ﷺ رجلًا سهلًا، إذا هَوِيت – أي عائشة – الشيء تابعها عليه(٣).

وكان ﷺ حسن الخلق مع أصحابه حتى أنه كان يمازحهم ويضاحكهم، يتوددُ إليهم بذلك حتى قالوا له: يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال: «**إني لا أقول إلا حقًّا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٨٧)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٣).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٤٠) وقال الترمذي: حسن صحيح.

وكان ﷺ يضحك، «وكان جلُّ ضحكه التبسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدوَ نواجذُه، وكان يضحك مما يُضحك منه، وهو مما يُتعجب من مثله ويُستغرب وقوعه ويُستندر.

وأما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تُهملا، ويسمع لصدره أزيز»(١).

وحذر ﷺ من الغلو والتشدد لما له من أثرٍ سيئٍ على الفرد والجماعة والأمة بأسرها، فقال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»(٢).

وضرب ﷺ لنا المثل بمن كان قبلنا من الأمم التي سلكت طريق التشدد والغلو، فانسلخت من الدين بالكلية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**لا تشددوا على أنفسكم، فيشدد الله عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار؛** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾»(٣) [الحديد: ٢٧].

وكان ﷺ لا يقبل أي مظهر من مظاهر الغلو يتسرب إلى بيت النبوة، فقد دخل على إحدى زوجاته وهي زينب بنت جحش رضي الله عنها، فوجد حبلًا

(١) زاد المعاد (١/ ١٧٧).
(٢) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢١٥) وصححه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦).

ممدودًا بين ساريتين، فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبلٌ لزينب إذا فترت عن الصلاة تعلَّقت به، فقال النبي ﷺ: «**لا، حلّوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد**»[١].

ومن معالم التوازن النبوي ما ذكرته عائشة ﵂ قالت: ما خيِّر النبيُّ ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه[٢]. «تعني أنه كان ﷺ إذا خيره أحد في شيئين، يجوز له فعل كل واحدٍ منهما، أو عُرضت عليه مصلحتان، مال للأيسر منهما، وترك الأثقل، أخذًا بالسهولة لنفسه، وتعليمًا لأمته، فإذا كان في أحد الشيئين إثم تركه وأخذ الآخر وإن كان أثقل»[٣].

قال ابن عبد البر تعليقًا على هذا الحديث: «دين الله يسر، والحنيفية سمحة، وقال الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة**»[٤].

وأما أخلاقه ﷺ، فلا يُحصى الحسن منها كثرةً، ولو أفرد لها كتاب لقصر عنها، ويكفي في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥] [القلم: ٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٣) المفهم (٨/ ٢٢٦).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
(٥) الاستذكار (٨/ ٢٧٤).

وقد بيَّن النبي ﷺ لحنظلة أن العبودية لا تعني الانقطاع للآخرة ونسيان الدنيا بالكلية، وأن التوازن بينهما هو المطلوب، فعن حنظلة الأسيدي – وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ – قال: لقيني أبوبكرٍ فقال: كيف أنت يا حنظلة. قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا[1] الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا.

قال أبو بكرٍ: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**».

قال: قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلةُ! ساعةً وساعة**» ثلاث مرات[2].

لقد أخبر ﷺ أن التشدد والغلو ينتهي بصاحبه إلى الهلاك فقال: «**هلك المتنطعون**» ثلاث مرات[3].

---

(١) **عافسنا الأزواج والأولاد**: اشتغلنا بهم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٧٠).

ومن هنا كان ﷺ ينهى عن مظاهر الغلو والتنطع ويبين أن تعذيب النفس وإيقاعها في الحرج ليس من الإسلام، ولا مما يتقرب به إلى الله ﷻ، فعن ابن عباسٍ قال: «بينا النبيُّ ﷺ يخطب، إذا هو برجلٍ قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظلّ، ولا يتكلّم، ويصوم، فقال النبيُّ ﷺ: **«مُرْهُ فليتكلم، وليستظلّ، وليقعدْ، وليتم صومه»**(١).

وعن أنسٍ أن النبيَّ ﷺ رأى شيخًا يُهادى بين ابنيه فقال: **«ما بال هذا؟»** قالوا: نذر أن يمشي. فقال ﷺ: **«إن الله لغنيٌّ من تعذيبِ هذا نفسه»** وأمره أن يركب(٢).

ونهى ﷺ عبد الله بن عمرٍو عن صيام الدهر وقيام الليل كلّه، فقال له: **«ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟»** فقلت: بلى يا رسول الله. قال: **«فلا تفعل؛ صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا، وإن بحَسْبك أن تصوم كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيام، فإن لك بكلِّ حسنةٍ عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كلّه»**. قال: فشددتُ فشُدِّد عليَّ؛ قلت: يا رسول الله! إني أجدُ قوة. قال: **«فصم صيام نبيِّ الله داود عليه السلام، ولا تزِدْ عليه»** قلت: وما كان صيام نبيِّ الله داود ؑ؟ قال: **«نصف الدهر»**. فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: ليتني قبلتُ رخصةَ النبيِّ ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٥).

الخاتمة

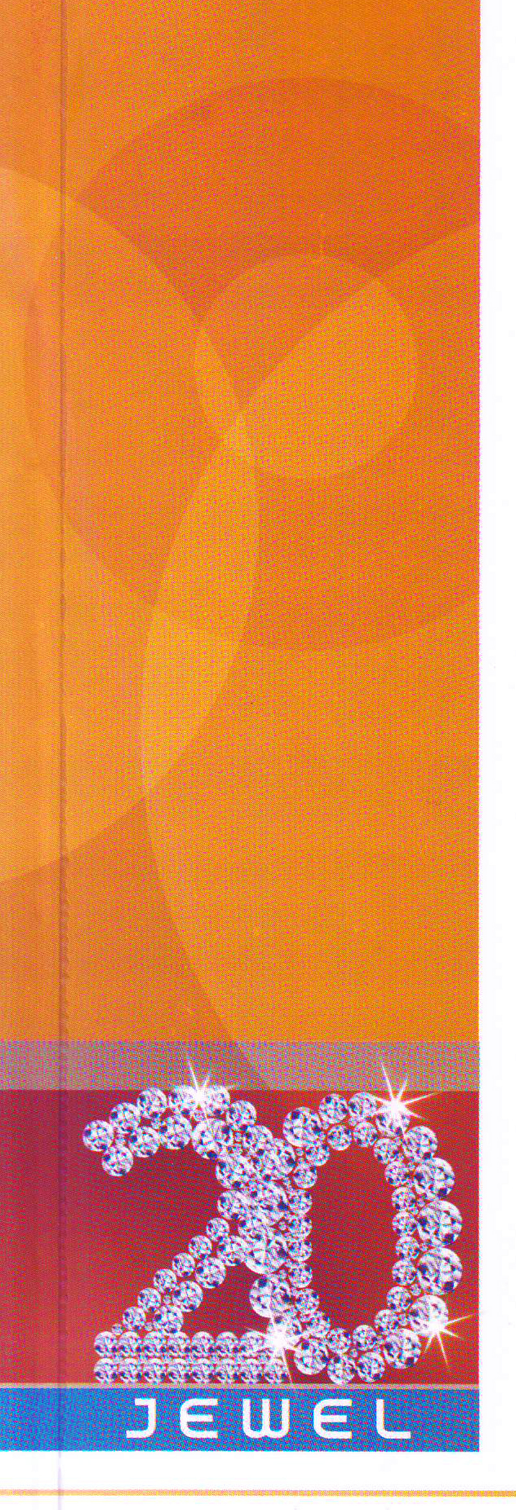
الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وبعد:

فقد أكد هذا التطواف المحدود في شيء من درر الأخلاق النبوية حاجة الأفراد والمجتمعات إلى النهل من معين السيرة النبوية الثر والاغتراف من نهرها الجاري بالقيم الأخلاقية التي تحقق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة وإني لآمل من كل قارئ لهذه الجواهر من أخلاق الرسول ﷺ أن يجعلها معيارًا ضابطًا يقيس من خلالها مدى اقتدائه بالسراج المنير ﷺ في خلقه وتعامله مع القريب والبعيد، والموافق والمخالف، والصديق والعدو، استجابة للتوجيه الرباني والإرشاد الإلهي في قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

وشكرًا لله المنعم المتفضل الذي أكرمنا بمبعث هذا النبي المربي والرسول المعلم ﷺ فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم أحينا على طاعته وعلمنا سيرته وتوفنا على ملته واحشرنا تحت رايته، وأوردنا حوضه، واجمعنا به في دار كرامتك، يا أرحم الراحمين.

الفهرس





حسن الخلق . الرحمة . الرفق

الصدق . الأمانة . الصبر . العفو

الكرم والجود . العدل

الوفاء . الحلم . التواضع

الشجاعة والقوة . الزهد . الحياء

السكينة والوقار . الثقة بالله تعالى

التفاؤل . حسن العشرة الزوجية

التوازن والاعتدال



كرسي المهندس عبدالمحسن بن محمد الدريس
للسيرة النبوية ودراساتها المعاصرة
بجامعة الملك سعود

مطابع الفسطاط الحديثة
al_fostat@yahoo.com